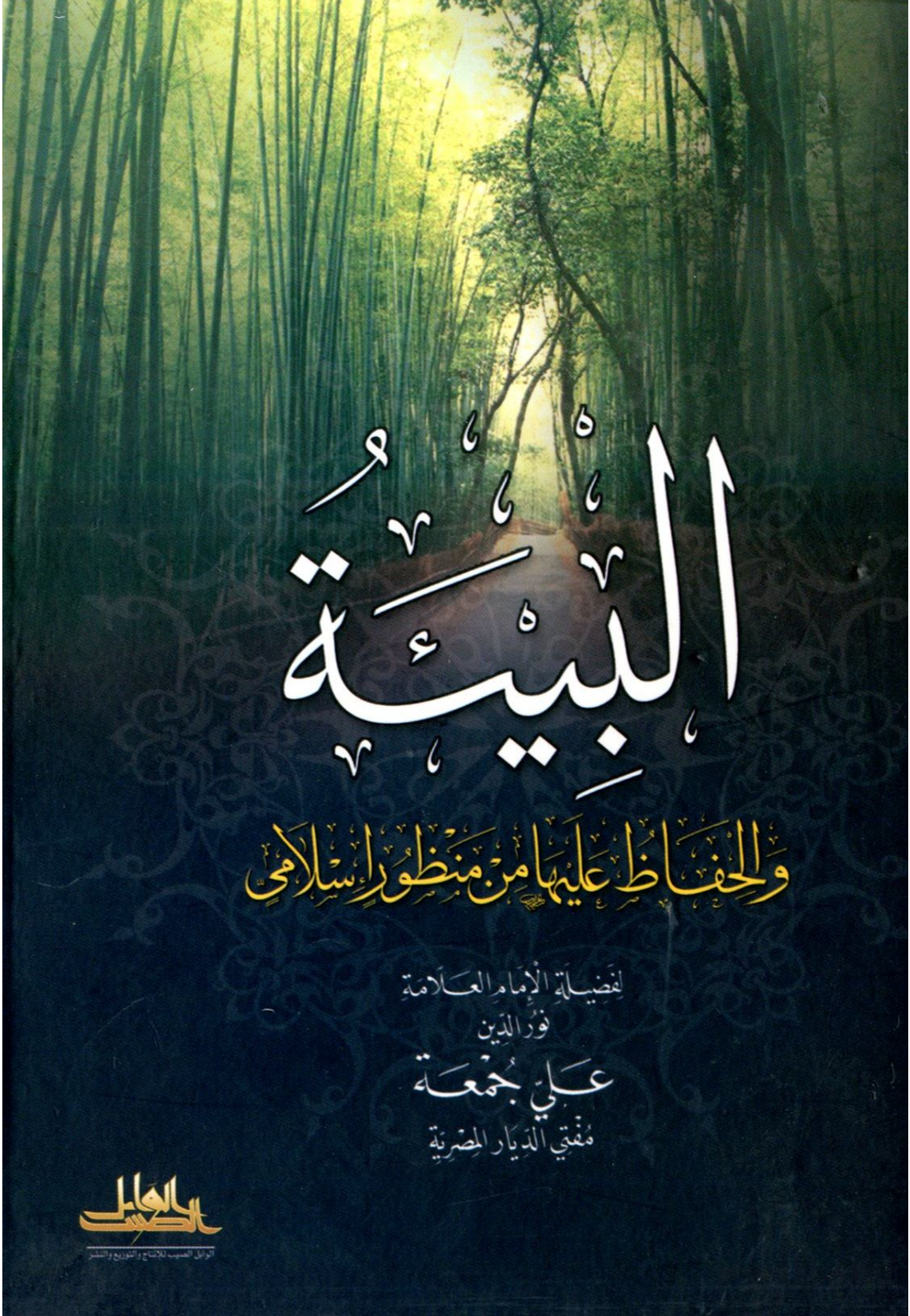

البيئة

والحفاظ عليها من منظور إسلامي

لفضيلة الإمام العلامة

نور الدين

علي جمعة

مفتي الديار المصرية

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

البيئة
والحفاظ عليها
من منظور إسلامي

البيئة
والحفاظ عليها
من منظور إسلامي

لفضيلة الإمام العلامة
نور الدين
علي جمعة
مفتي الديار المصرية

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا ..... أمانة في أعناقنا

جميع حقوق الطبع والنشر والترجمة
محفوظة لشركة
الوابِل الصَّيِّب
للإنتاج والتوزيع والنشر

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١١٥٢
الترقيم الدولي I.S.B.N.
٩٧٧-٦٢١٤-٢٤-X

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي

نور الدين علي جمعة - ط١. - القاهرة
شركة الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر ، ٢٠٠٩
١٢٨ص ، ٢٠سم
تدمك X ٢٤-٦٢١٤-٩٧٧
١- الإسلام والبيئة
٢- الثقافة الإسلامية
أ. العنوان
٢١٤,٥٧٧

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا ..... أمانة في أعناقنا

٧٠٤٧ شارع ١٧ - المقطم - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٩٨٥٠٨٩١ (٢٠٢+) - ٢٩٨٥٠٨٢٤ (٢٠٢+)
٢٥٠٥٧٨٣٠ (٢٠٢+) - محمول ٠١٨١٧٥٥٥٦٦ (٢٠٢+)
E-Mail: Info@Alwabell.com
www.alwabell.com
www.alimamalallama.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

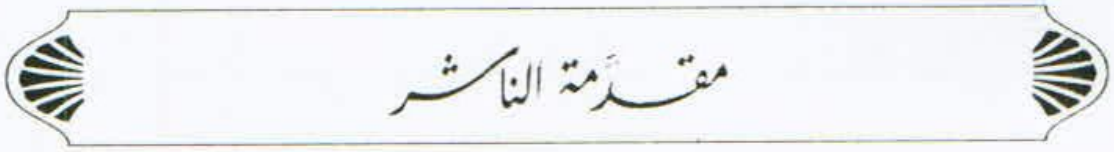

هذا الكتاب يُمثِّل نتاجًا لفكر خلَّاق؛ بل هو إبداعٌ حيٌّ راق، يُقَدِّم رؤيةً متكاملةً للتعامل مع قضيةٍ من أكثر القضايا التي تَشْغَلُ بالَ العالم أجمع؛ ألا وهي: «**قضية البيئة**».

فلهذا الكتاب أهمية عظمىٰ يستمدها من مصدرين؛ **أحدهما:** ذاتي، ينبع من خطورة هذه القضية، وحاجتنا الماسة إلىٰ الوعي الصحيح بها.

والآخر: يتمثل في حاجة الإنسان إلىٰ تناول جديد، يقدِّمُ له رؤيةً دينية عصرية مستنيرة، تتناول هذه القضية بمفهومها العَقَدِيِّ، وأحكامِها الفقهيَّةِ، وآدابِها الأخلاقيَّة.

وهذا ما قدَّمه لنا فضيلة الإمام العلَّامة نور الدين: **علي جمعة**؛ فلقد قدم لنا رؤيةً دينية، شاملة عصرية، فأكّد لنا في رؤيته هذه أن الكونَ مُسَخَّرٌ، وأننا مستخلفون فيه؛ ولذلك فعلينا أن نعيش فيه باعتباره كائنًا يسير معنا في طريقنا إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

كما تحدَّث فضيلتُه بأسلوبه الماتع البديع عن دعوة الإسلام

إلىٰ الرحمة والرِّفق بجميع الخلق، ودعوتِه كذلك إلىٰ عمارة الأرض والنظرِ والتأمل في هذا الكون؛ ولقد نهانا الإسلام عن إفساد هذه البيئة البديعة، وكذلك عن الإسراف في التعامل مع مواردها، كما أمرنا بالحفاظ علىٰ النظافة والطهارة، والحفاظ على هذا الكون والتعامل معه باعتباره كائنًا حيًّا يشعرُ ويتألم.

وختم لنا فضيلتُه بالآداب الأخلاقية، والتي بها نستطيع أن نحافظ علىٰ ذلك التوازنِ الإلهي المُحْكَمِ في كونه؛ وذلك حفاظًا علىٰ حياتنا وحياة الأجيال القادمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام علىٰ سيدنا محمد رسولِ الحق إلىٰ كافة الخَلْق، وغَمامِ الرَّحمة الصّادق البَرْق، والحائزِ في مَيدان اصطفاء الرحمن قَصَبَ السَّبْق، خاتمِ الأنبياء، ونبيّ الهُدىٰ، الذي طهر قلبه وغفر ذنبه وختم به الرسالةَ رَبُّه، خيرِ من وطِئَ الثَّرىٰ، من لو حازت الشمسُ بعضَ كماله ما عُدِمَت إشراقًا، أو كان للآباء رحمة قلبِه ذابت نفوسُهم إشفاقًا، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن موضوع هذا البحث لم يقتصر علىٰ المفهوم الشائع عن البيئة، والذي حددها بأنها كل ما يحيط بالإنسان من مخلوقات ومظاهرَ طبيعية. ولكننا ننظر للبيئة علىٰ أنها الإنسانُ وكلُّ ما يحيط به؛ وذلك لأنه ليس ثمَّة سبب منطقي يُخْرِجُ الإنسانَ عن كونه جزءًا من البيئة، وهو أهمُّ جزءٍ فيها، وصلاحُها مرتبط بصلاحه، وفسادُه وعدمُ المحافظة عليه من الناحية النفسية والعقلية والجسدية بتنمية قدراته يُعدُّ أكبرَ فسادٍ في البيئة.

والخلافةُ والأمانة التي هي وظيفةُ الإنسان في الأرض تَعني الاعتناءَ والرعاية بالإنسان أولًا، ثم بغيره من الكائنات، وذلك لا يكون إلا بهدايته إلىٰ المنهج السَّويِّ في إعمار الكون وفهمِ مراد الحق سبحانه وتعالىٰ من الوجود.

والخلافة في الأرض بالمفهوم الإسلامي تعني تَحَمُّلَ الإنسان لمسئولية إعمار الكون والمحافظة علىٰ البيئة، وذلك في مقابل ما يُنَعَّمُ به الإنسانُ من تسخير الكون في خدمته وسعادته.

والتسخيرُ هو انتفاع الإنسان بصفته الإنسانية بخيرات الكون وطيباته، ولذلك فلا يحق لإنسان -تبعًا للمنهج الإسلامي- أن يَستأثرَ بهذا النفع دون غيره علىٰ المستوىٰ الزماني أو المكاني.

فقد نَصَّبَ اللهُ الإنسانَ حارسًا وخليفةً في الكون، وجعله مهيمنًا علىٰ ما فيه من منافعَ وتسخيراتٍ- حتىٰ يظل سيِّدًا وخليفةً فلا يُحْتَكَمُ عليه من غير جنسه، وهي مسئولية يُحاسَبُ عليها في الآخرة ويُجازىٰ بمقتضىٰ فِعله فيها: إن خيرًا وصلاحًا فخير، وإن شرًّا وفسادًا فشر.

وإعمارُ الكون والمحافظةُ علىٰ البيئة عمليةٌ تقوم علىٰ بُعدَيْن:

البُعد الأول: يتعلق بالتصورات العقائدية التي ترسُم العلاقاتِ بين

الإنسان والكون والإله. **والبُعد الثاني**: يتعلق بالتصورات الفقهية، والتي تَصدُرُ عنها الأحكامُ الشرعية، والتي تُنَظِّم العلاقاتِ بين الإنسان والكون وبين الإنسان والخالق.

ويهدف البحثُ إلىٰ توضيح ما جاء في الإسلام من تصورات عقائدية وأحكام فقهية جعلت الإنسان مُطالَبًا وقادرًا ومدفوعًا إلىٰ المحافظة علىٰ بيئته الإنسانية، والمشاركةِ والتعاون علىٰ عدم الإفساد فيها، وتوضيحِ أن الشرع الإسلاميَّ لم يقف عند حدود المحافظة بل تعدّاها إلىٰ التنمية والإصلاح وغير ذلك؛ لأن الإسلام حضَّ علىٰ العمل والتَّفَكُّر والبحث عن أسرار الكون استدلالًا علىٰ الوجود الإلهي ووصولًا إلىٰ المحبَّة.

فالتَّصورُ الذي رسمه الإسلامُ للسماء والأرض والجمادِ والنبات والحيوان كان أَدْعَىٰ إلىٰ حصول الاهتمام والرعاية من الإنسان لبقيَّة المخلوقات، بل والرفق والرحمة والمحبة؛ لأن المسلم بحبه لله تَحْصُلُ في قلبه المحبةُ لكل ما خلق الله وأبدع.

ويوضِّح البحث ما جاء في النصوص الشرعية من ثُنائياتٍ ترسُمُ التصورَ الإسلاميَّ للوجود، مثل الخلافةِ والتَّسْخيرِ، والحق والواجب، والمنهج والبناء، والمحافظة والمحبة، والمنفعة والجمال.

أما أولاً: الخلافة والتَّسْخير

الخلافة تعني: المسئولية عن الكون برعايته والمحافظة عليه، والتسخير يعني: الاستفادة منه والاستمتاع به، وكلاهما يقتضي المشاركةَ والتعاون. والمسئوليةُ تقع على الناس جميعًا كما أن الانتفاع حَقٌّ مَكْفول للجميع ومُشْتَرَكٌ بين الناس بصفتهم الإنسانية، لم يجعله الله حقًّا لقومٍ أو فئةٍ دون غيرها.

فالمؤمن يعتقد أنه عبْدٌ مخلوقٌ لله مثل بقية المخلوقات، سواء منهم الإنس أو الجن أو الجماد أو الحيوان، وقد جعله الله أمينًا ووكيلًا يحافظ على الكون ولا يستأثر به ولا يطغَى بالسيطرة عليه؛ لأنه حق جعله الله شِرْكًا بين الأحياء جميعًا، فلا يحق له أن يحرم منه حتى الحيوان.

فإن الله خلق الإنسان في هذا الكون وحيدًا عاجزًا عن إيجاد الأشياء التي تضمن له البقاءَ في الحياة، فَيَسَّرَ الله له رِزقَه وسخَّرَ له الأرض والسماء والشمس والسحاب وغيرها حتى تُوَفِّرَ له الماءَ العذب والهواءَ النقي والطعامَ الشهيّ؛ وذلك لأنه سبحانه لم يُرِد من الإنسان أن يأتيَه قهرًا تحت وَطْأَةِ الحاجة والعَوَزِ للطعام أو الشراب أو غير ذلك، وإنما أراده أن يختار الإيمان طَوعًا ويصل

إلىٰ اليقين بوجوده وحكمته عن طريق التَّفكُّرِ والتأمُّل في قدرته علىٰ الخلق والإبداع.

وأما ثانيًا: الحق والواجب

فالحقُّ هو الحقُّ المشترك بين الناس في الاستمتاع والانتفاع بعطاء الله ورزقه، الذي لم يَجعل أحدًا كفيلًا علىٰ آخَرَ في الوصول إليه، والواجب: هو واجب الرعاية والمحافظة علىٰ الكون والوجود؛ لأن هذا هو مقتضَىٰ الخلافةِ والأمانة التي تحمَّلها الإنسان.

والشَّرع الإسلاميُّ ارتقىٰ بالحقوق وقَدَّسَ مكانتها حتىٰ غَدَت واجبات علىٰ الفرد والجماعة، وأَدخلَ حقوقَ الإنسان ضمنَ حقوقِ الأكوان، فهي دائرةٌ أعمُّ وأشمل، ومعنىٰ ذلك أنّ الشرعَ إذْ أعطىٰ الإنسانَ حقَّ المُعتَقَدِ مثلًا فقد أوجب عليه حفظَ الدِّين بإقامة الشعائر والعبادات، وإحسانِ التعبير والدعوةِ إليه، وعليه أيضًا أن يطالِبَ بهذا الحقِّ بل ويجاهدَ دونه ولا يتنازل عنه، لا في حقه فقط بل وفي حق غيره، بمعنىٰ أن يطالب المسلمُ المجتمعَ الإسلاميَّ وغيرَه أن يَكفُل للإنسان حقَّ المُعتقَد وحق التعبير عنه بِحُرِّيَّة ودون قهرٍ أو إكراهٍ، وهكذا فهي دائرةٌ واحدةٌ، الحقوقُ والواجبات فيها وجهان لعملة واحدة.

فحينما أوجب الشرع علىٰ المسلم حفظ الأعراض مَنَحَه حقًّا علىٰ المجتمع كلِّه أن يحفظ عليه عِرْضَهُ وشَرَفَه وكرامَتَه من أيِّ اعتداء يصيبه، ويَبذُلُ المجتمعُ وُسعَه في حمايته والمحافظةِ عليه من أيِّ امتِهانٍ مهما كلَّفهم الأمر، فحماية عِرض الأفراد حقٌّ لهم واجبٌ علىٰ مجتمعهم الإسلامي، ومثل ذلك أموال الفَرْد، فهي مُودَعَةٌ في ضمان الجماعة وحمايتها.

والشرع الإسلاميّ لم يجعل للإنسان حقًّا في إهْدار بُنيانه، بل أوجب عليه احترامَه ورعايةَ حقوقه، وأوجب عليه احترامَ كرامتِه وصيانَتها من الدَّنَسِ، وأوجب عليه العملَ لئلا يُضطرَّ إلىٰ اللجوءِ إلىٰ الخَلْق بِمَذَلَّةٍ أو مَهانَةٍ.

ومن نفس المنطق تعاملت الشريعة الإسلامية مع العَلاقة بين الإنسان والبيئة، فكما أوجبت عليه المحافظةَ والمشاركةَ والرحمةَ والرفقَ جعلت له حقًّا يُطَالِبُ به، وهو أن يعيش في بيئةٍ نظيفةٍ جميلةٍ، يشعر فيها بالحرية والكرامة.

وقد كان المُحْتَسِبُ في الدولة الإسلامية يقوم بدور كبير في المطالبة بحقوق الأفراد في التَّنَعُّمِ ببيئة نظيفة وخَدَمات راقية، وكذلك في إلزامهم الإحسانَ والإتقانَ في العمل.

وإنه لأمرٌ يدعو للانبهار بالمستوىٰ المُتَحَضِّرِ الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية.

فقد كان المُحْتَسِبُ -علىٰ سبيل المثال- يطالب الخَبّازَ بأن يَكُونَ مُلَثَّمًا؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا عَطَسَ أَوْ تَكَلَّمَ، فَقَطَرَ شَيْءٌ مِنْ بُصَاقِهِ أَوْ مُخَاطِهِ فِي الْعَجِينِ، وَيَشُدُّ عَلَىٰ جَبِينِهِ عِصَابَةً بَيْضَاءَ؛ لِئَلَّا يَعْرَقَ فَيَقْطُرُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْعَجِينِ، وَيَحْلِقُ شَعْرَ ذِرَاعَيْهِ؛ لِئَلَّا يَسْقُطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْعَجِينِ، وَإِذَا عَجَنَ فِي النَّهَارِ فَلْيَكُنْ عِنْدَهُ إِنْسَانٌ فِي يَدِهِ مَذَبَّةٌ يَطْرُدُ عَنْهُ الذُّبَابَ[1].

وكان يضع شروطًا لمُمارسة الطب، ويُشْرِفُ علىٰ تَحَقُّقِها فيمن يُزاول المَهنَةَ، فَالطَّبِيبُ هُوَ الْعَارِفُ بِتَرْكِيبِ الْبَدَنِ، وَمِزَاجِ الْأَعْضَاءِ، وَالْأَمْرَاضِ الْحَادِثَةِ فِيهَا، وَأَسْبَابِهَا وَأَعْرَاضِهَا وَعَلَامَاتِهَا، وَالْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ فِيهَا، وَالاعْتِيَاضِ عَمَّا لَمْ يُوجَدْ مِنْهَا، وَالْوَجْهِ فِي اسْتِخْرَاجِهَا، وَطَرِيقِ مُدَاوَاتِهَا، لِيُسَاوِيَ بَيْنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوِيَةِ فِي كَمِّيَّاتِهَا، وَيُخَالِفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كَيْفِيَّاتِهَا.

---

(١) عبد الرحمن الشَّيْزَرِي: «نهاية الرُّتبة، في طلب الحِسبَة» ص٢٢، تحقيق: د/ السيد الباز العريني. دار الثقافة- بيروت.

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَا يَحِلُّ لَهُ مُدَاوَاةُ الْمَرْضَىٰ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَىٰ عِلَاجٍ يُخَاطِرُ فِيهِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَىٰ مَا لَمْ يُحْكِمْ عِلْمَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ[1].

وقد أحاطت الشريعةُ أمرَ المحافظة علىٰ البيئة بتشريعات كثيرة ضَمِنت ارتباطَ إعمار الكون وتنميته بالإطار العام للدِّين، وإن مقرَّرات الشريعة الإسلامية لتستهدف دائمًا صلاح الفرد والجماعة في غير عُسْرٍ ودون ما حَرَجٍ.

ولذلك شَرعَت العقوبات المقررة علىٰ الأفراد، وفَرَضَت عليهم جهاد المُعْتَدِين المفسدين قاصدةً عِمارةَ الأرض، هادفةً المحافظةَ عليها ومَنْعَ الفساد فيها أو العبث بحياة المخلوقات عليها. والفسادُ في الأرض له صُوَرٌ متعددة فهو يشمل الظُّلمَ والقتلَ والجُحودَ والتخريبَ، ويجب علىٰ المسلم الامتناع عن كلِّ أشكال الفساد وصُوَرِه.

وأما ثالثًا: المنهج والبناء

إن الشرع الإسلاميَّ جعل إعمارَ الكون أمرًا واجبًا وضروريًّا علىٰ الإنسان دِينًا ودُنْيا، وهذا الإعمارُ عامٌ يشمل كلَّ الوجود

(١) المرجع السابق، ص ٩٧.

والمخلوقات، ولم يَفرِض الشرعُ على الإنسان أُسلوبًا أو كيفية محددة يتبعها في عملية التنمية والإعمار، بل وَسَّعَ عليه في ذلك، وطلب منه الاجتهادَ في تحصيل كلِّ طريق يحقِّقُ له المصلحةَ والسعادةَ في حياته، ورسم له منهاجًا عامًا وضع فيه منارات تهديه وتُرشده إلى المصالح الحقيقية التي تصلُ به إلى السعادة، وذلك ببيانه المقاصد والأهداف من وراء إعمار البيئة من حولنا، مما جعل خُطُوات الإنسان في بنائه إيجابيةً في جوهرها لا هدَّامةً أو مُطَفِّفَةً، وجعلها لا تُخِلُّ بالعلاقات المُقَدَّرَةِ المُحْكَمةِ بين عناصر الوجود.

وإعمارُ الأرض الذي كُلِّفَ الإنسانُ به يقوم على شقين: المنهج، والبناء. والإهمال لأيٍّ من الشِّقَّين يُعتَبَر إفسادًا، فإهمال البناء والتنمية يُعَدُّ خللًا في القيام بوظيفة الخلافة، وكذلك إهمال تحصيل المنهج السَّوِيّ القائم على الالتزام الخُلُقِي والفضيلة يُفَوِّتُ الفرصةَ في جَعْلِ البناءَ حضاريًا يُحَقِّقُ للإنسان السعادة.

فَطُغيان الجانب المادِّي جعل الإنسانَ لا يُبالي بإفساد الأرض بالنُّفايات الذَّرِّية والنَّووِيَّة والإشْعاعِيَّة وغيرِها، والتي تَتَخَلَّف عن عمليَّة إنتاج الطاقة، تحت تأثير التَّلَهُّفِ إلى حصول المصلحة المباشرة السريعة، فَفَقَدَت الأرضُ كثيرًا من صلاحيتها للعِمارة والعطاء.

ولم يَكْتَفِ القائمون على الفلسفة المادية بالإعراض عن

المنهج السَّويّ القائم على الفضيلة والقِيَمِ- بل رَاحَ يُفسِد في هذا المنهج ويُلَوِّثُهُ بما يَبُثُّهُ من ثقافة الجِنس والعُرْيِ والعُنف، أو يدعو إليه من اعتقادٍ في الإلحادِ والخُرافات.

وأما رابعًا: المحافظة والمحبة

إن الإسلام تعامل مع الطبيعة والكون من مُنطلَقِ الحُبِّ والاحترام، وهو مستوىً رفيعٌ يَزيد على مستوىً المحافظة والتنمية، فالإسلام وَجَّهَ الإنسانَ إلى إنشاء عَلاقة بينه وبين الجَماد فيها مشاركةٌ وحَنِين وشوق، فالكون في المنظور الإسلامي طائع لله يُسَبِّحُ ويسجد، يحب الطائعين ويبكي رحيلَهم عن الدنيا، ويبغض العاصين الكافرين ولا يبالي بزوالهم وهلاكهم؛ وذلك لأن الطائعين متناغمون متشاركون معه في أداء السجود والتسبيح، أما الآخرون فهم معاندون متنافرون مع كل ما يحيط بهم.

ونحن نرىٰ الرسول ﷺ حينما خرج من مكة للهجرة عَبَّرَ عن حُبِّهِ وتَعَلُّقِهِ بالأرض التي نشأ فيها وتربَّىٰ، حيث قال وَاقِفًا عَلَىٰ الْحَزْوَرَةِ[1]: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ**

(١) سوق مكة، وقد دخلت في المسجد لَمَّا زيد فيه. انظر: ياقوت الحموي: «**معجم البلدان**»: ٢/٢٥٥. دار الفكر- بيروت.

إِلَىٰ اللهِ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[1].

فالنبي ﷺ أحب الأرض (الجماد) لفضلها وكرامتها عند الله وعنده، حيث شَرُفَتْ بأن كان فيها أولُ بيت وُضِع للناس، ولكن الرسول في ذات الحين أبغَضَ الإنسان لفعله الجحودَ والكفرَ والجهلَ والفسادَ والإعراض.

وقد حَنَّ الجِذْعُ لرسول الله ﷺ حُبًّا، وأنَّ أنينَ العِشار فَسَمِعَ صَوْتَه من كان بالمسجد مِن الصَّحابة، فلم يُعْرِضْ عنه النبيُّ ﷺ، بل جاوَبَهُ وتفاعل معه، فنزل وذهب إليه فالتزمه ومسح عليه حتىٰ سكن.

وتلك رؤية تميَّز بها الإسلام، فقدَّم رؤية متكاملة للكون تدعو الإنسان إلىٰ المحافظة عليه وحسنِ الانتفاع بما فيه من موارد.

(١) أخرجه الترمذي: ٥/٧٢٢ برقم (٣٩٢٥) وقال: حسن غريب صحيح، وابن حبان في «صحيحه»: ٩/٢٢ برقم (٣٧٠٨).

عَلاقة الكون بخالقه

١- الكون كله يسبح لله -عز وجل-، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النور، آية: ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء، آية: ٤٤].

وطالما أن الكون يُسَبِّحُ رَبَّه ويَحمَد خالِقَه الحَقَّ، فإن أيَّ اعتداء عليه أو تصرُّف فيه بغير حق يُعَدُّ عَبَثًا وطُغْيانًا يؤدي حتمًا إلىٰ الفساد، وينبغي أن يُجَرَّمَ صاحبُهُ؛ لأن أيَّ اعتداءٍ علىٰ الكَوْنِ يُعدُّ اعتداءً علىٰ حق الإنسان في الحياة.

والمسلم بهذا التصَوُّر يحترِم جميعَ المخلوقات أصغرِها وأعظمِها؛ لأنه يراعي فيها عظمةَ مُوْجِدِها ومُدَبِّرِها، وقدرةَ من تَعَبَّدَهَا بالتسبيح والسجود.

٢- والكون يشارك الإنسان في الطاعة والتسبيح، قال تعالىٰ:

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ٧٩].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سورة سبأ، آية: ١٠].

فنَبِيُّ اللهِ داود عليه السلام الذي جعله الله خليفة في الأرض، وآتاه الحُكمَ والعلم، ورزقه الحكمة، وأمره أن يحكم بالحق فَحَكَمَ- كان جزاؤه أن سخَّرَ الله له الجماد والحيوان تسخيرًا خاصًّا، فكان إذا سبَّح داودُ أجابته الجبال، وكان عليه السلام إذا وجد فَتْرَةً أمَرَ اللهُ تعالىٰ الجبالَ فسبَّحَتْ فيزداد نشاطًا واشتياقًا.

٣- وقد خاطب الحق سبحانه وتعالىٰ كثيرًا من المخلوقات غير الإنسان، فأَوْحَىٰ إلىٰ النَّحل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ﴾ [سورة النحل، الآيتان: ٦٨-٦٩].

وأَمَرَ الأرضَ والسماءَ، قال تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [سورة هود، آية: ٤٤].

وجعل للأرض والسماء اختيارًا، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [سورة فصلت، آية: ١١].

وعَرَض الأمانةَ على السموات والأرض والجبال، وجعل لهم اختيارًا، فَرَفَضْن تَحَمُّلَ الأمانة، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٧٢].

وكل ذلك إنما يعكس احترام الكائنات في التصور الإسلامي علىٰ المستوىٰ المادِّي والوجداني. ومن هذا المُنطلَق يتصرف المسلم مع الأرض والسماء وكل المخلوقات باحترام ورحمة، تدفعه أن يحافظَ عليها ولا يهمل وجودَها لا من الناحية المادية ولا من الناحية المعنوية.

عَلاقة الإنسان بالكون

تقوم العَلاقة بين الإنسان والكون علىٰ التوافق والانسجام، ومنذ هَبَطَ الإنسان إلىٰ الأرض وقد ارتبط تطوُّرُه العقليُّ والحضاريّ بحُسنِ توافقه وتَكَيُّفِه مع البيئة والكون، وحُسنِ استخدامه وانتفاعه بمفردات الحياة. فلا يَحِقُّ له بأيِّ حالٍ الإساءة إليه، بل يجب عليه احترامه ورعايته.

والمسلم خاصة يتعامل مع مخلوقات الله من مُنطلَقِ الشعور بالمساواة معها والمشاركة في العبودية لإلهٍ واحد، وترتبط علاقاتُه بغيره بِمَدَىٰ تَعَلُّقِهِ والتِفاتِه إلىٰ ربِّه، فهو يتوجه بالحب إلىٰ الله ومن خلال ذلك الحب يتوجه بالحب إلىٰ ما أبدع وصنع؛ ولذلك نراه يستوي عنده ضعفُ المخلوقات وقوتُها، حقارتُها وعظمتُها؛ لأن نظره لا يتعلق بها بل يتعلق بخالقها القويِّ الحكيم. فالمسلم يُقَدِّسُ من عالَمِ الأشياء: المصحفَ، والكعبةَ، وقبرَ النبي محمد ﷺ ونحوها؛ لمكانتها عند الله عز وجل، وتقديسُهُ لها يجمع بين الاحترام والحب.

١- ولقد أعطىٰ النبي ﷺ أصحابه درسًا في حُبِّ الجَماد

والتفاعل معه ومُجاوبته حينما حَنَّ إليه الجِذع ومال، فَعَنْ جَابِرٍ: «كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَىٰ جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَىٰ جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ، وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ، حَتَّىٰ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، فَسَكَنَتْ»[1].

ومن الناس بل ومن المؤمنين مَن قلبُه ونفسه أكثر قسوةً من الجِذع فلا تحنُّ لرسول الله ﷺ ولا تَئِنُّ لفِراقه كما فعل.

٢- وعندما مَرَّ النبي ﷺ علىٰ جبل أُحُد، وعلىٰ الرغم من أنه كان موطنًا أصاب المسلمين فيه قَرْحٌ وأصاب النبيَّ جُرْحٌ، واستشهد عليه عمه حمزة بن عبد المطلب فحزن النبي لذلك- إلا أنه أشار إليه وقال: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[2].

فالجبل أحبَّ المسلمين، والمسلمون يحبون هذا الجبل، علىٰ الرغم من أن ما حدث في موقعة أُحُد كان أدعىٰ أن يتشاءم المسلمون منه.

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣١٤/٣ برقم (٣٣٩٢).

(٢) متفق عليه، البخاري: ١٠٥٨/٣ برقم (٢٧٣٢)، ومسلم: ١٠١١/٢ برقم (١٣٩٣).

وفي موقف آخر مع جبل أُحُدٍ نَجِد النبيَّ ﷺ يَغْمِزُهُ برجلِه حينما اهتزَّ من تحته، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ قَالَ: «**اثْبُتْ أُحُدُ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ**»(١).

٣- ولم يكن هذا الأمر من التفاعل مع الجماد في البيئة الإنسانية مقصورًا في حياة رسول الله ﷺ بعد بعثته، بل وقبلها فقد قال ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ**»(٢).

فالنبي ﷺ يَذْكُر أنه لم يتجاهل الحَجَرَ بعد البَعثة، بل ظلَّ يَعرِفه ويتعلق به، ليس إلا أنه مخلوق لله أحبَّه وعظَّمه، وكان يُسَلِّمُ عليه قبل بَعثته مُبَشِّرًا له، ومُعْلِمًا بما سَيُكَلَّفُ به النبيُّ من تَحَمُّلِ الرسالة وأدائها.

٤- ومثل ذلك أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أَرَادَهُ اللهُ بِكَرَامَتِهِ وَابْتَدَأَهُ بِالنُّبُوَّةِ كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَتَّىٰ تَحَسَّرَ عَنْهُ الْبُيُوتُ، وَيُفْضِي

(١) أخرجه البخاري: ٣/١٣٤٤ برقم (٣٤٧٢)، ورقم (٣٤٨٣) و(٣٤٩٦).
(٢) أخرجه مسلم: ٢/١٧٨٢ برقم (٢٢٧٧).

إِلَىٰ شِعَابِ مَكَّةَ وَبُطُونِ أَوْدِيَتِهَا، فَلَا يَمُرّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ[1].

٥- وفي ليلة الجِنِّ التي خرج فيها النبي ﷺ مع عبد الله بن مسعود، فاجتمع نفر من الجن يستمعون القرآن ثم انصرفوا إلىٰ قومهم منذِرين، سُئل ابنُ مسعود من أخبر رسول الله بحضورهم فقال: آذَنَتْهُ بِهِمْ شَجَرَةٌ[2].

٦- ولقد نَبَع الماء بين أصابعه الشريفة ﷺ وسَبَّح الطعام بين يديه فسمعه أصحابه، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ الْمَاءُ فَقَالَ: «اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ». فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَىٰ الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،

---

(١) أخرجه الحاكم: ٧٩/٤ برقم (٦٩٤٢)، وقال الهيثمي في «مَجمَع الزوائد» ٤٦٦/٨: عَنْ عَلِيٍّ -رضي الله عنه- قَالَ: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَمُرُّ عَلَىٰ حَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ» رواه الطبراني في «الأوسط»: ٣٢٢/٥ برقم (٥٤٣١)، والتابعي أبو عِمَارَة الْخَيْوَانِيّ لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) متفق عليه، البخاري: ١٤٠١/٣ برقم (٣٦٤٦)، ومسلم: ٣٣٢/١ برقم (٤٥٠).

وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهْوَ يُؤْكَلُ[1].

٧- والذِراع المَصْلِيَّة[2] تحدَّثت لرسول الله ﷺ تُحَذِّرُه من السُّم الذي دسَّته اليهوديةُ فيها، فَإِنَّ يَهُودِيَّةً مِنْ أَهْلِ خَيْبَرَ سَمَّتْ شَاةً مَصْلِيَّةً ثُمَّ أَهْدَتْهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الذِّرَاعَ فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَكَلَ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ**». وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ فَدَعَاهَا فَقَالَ لَهَا: «**أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاةَ؟**». قَالَتِ الْيَهُودِيَّةُ: مَنْ أَخْبَرَكَ؟ قَالَ: «**أَخْبَرَتْنِي هَذِهِ فِي يَدِي**» -لِلذِّرَاعِ-. قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَمَا أَرَدْتِ إِلَى ذَلِكَ؟**». قَالَتْ: قُلْتُ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَنْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ اسْتَرَحْنَا مِنْهُ. فَعَفَا عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ[3].

٨- وقد كان التُّراب سلاحًا ناجعًا استجاب لرسول الله ﷺ في غزوة بدر وغزوة حُنين فعشي أعينَ المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣١٢/٣ برقم (٣٣٨٦).

(٢) المَصْلِيَّة يعني: المشويَّة. يقال: صَلَيْتُ اللحم -بالتخفيف-: أي شَوَيْتُه فهو مَصْلِيٌّ. انظر: محمود بن عمر الزَّمَخْشَرِيّ، «**الفائق في غريب الحديث**»: ٣١٠/٢.

(٣) أخرجه أبو داود: ٥٨١/٢ برقم (٤٥١٠).

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ فَتَعَاقَدُوا بِاللاَّتِ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَىٰ وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ[1] لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّىٰ نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ تَبْكِي، حَتَّىٰ دَخَلَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَؤُلاَءِ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ. فَقَالَ: «**يَا بُنَيَّةُ أَرِينِي وَضُوءًا**». فَتَوَضَّأَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَا هُوَ ذَا. وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقِرُوا[2] فِي مَجَالِسِهِمْ فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ قَامَ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَقَالَ: «**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**». ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَىٰ حَصَاةٌ إِلاَّ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا[3].

وعن العبّاس بنِ عبد المُطَّلِب: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَىٰ بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**». فَوَاللهِ مَا هُوَ

---

(١) نائلة وإساف: صنمان. انظر: ابن قتيبة، «**غريب الحديث**»: ١٩٢/٢.

(٢) العَقَر: أن تُسلمَ الرَّجُلَ قوائِمُهُ من الخوف، وقيل: هو أن يفجأه الرَّوع فيدهش. انظر: ابن الأثير، «**النهاية في غريب الحديث والأثر**»: ٢٧٣/٣. المكتبة العلمية، بيروت.

(٣) أخرجه أحمد في «**المُسند**»: ٤٨٧/٤، برقم (٢٧٦٣).

إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَىٰ حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا[1].

وقال سَلَمَة بن الأَكْوَع وقد شَهِدَ مع رسول الله حُنَيْنًا: فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ». فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ[2].

٩- ولم يكن تفاعل عالم الجماد مع رسول الله ﷺ مقصورًا علىٰ العالم الأرضي، بل والسَّماوِيّ، فنجدُ القمرَ ينشقُّ نصفين معجزةً له؛ فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ[3].

قال الخَطّابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يعادلها شيء من آيات الأنبياء؛ لأنه ظهر في ملكوت السماء، والخَطْبُ فيه أعظم، والبرهان به أظهر؛ لأنه خارج عن جملة طباع ما في هذا العالم من العناصر[4].

---

(١) أخرجه مسلم: ١٣٩٨/٣ برقم (١٧٧٥).

(٢) أخرجه مسلم: ١٤٠٢/٣ برقم (١٧٧٧).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري: ١٣٣١/٣ برقم (٣٤٣٨)، ومسلم: ٢١٥٩/٤ برقم (٢٨٠٢).

(٤) بدر الدين العَيْني، «عمدة القاري، شرح صحيح البخاري»: ٢٢٤/١٦، تحقيق: عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، ط١- ٢٠٠١م.

١٠- وقد استجاب الله -تعالىٰ- لنبيه فسخَّرَ السماء والسحاب لاستسقاءه ﷺ من حينها، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ[١] عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَمَا نَرَىٰ فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً[٢]، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا وَضَعَهَا حَتَّىٰ ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّىٰ رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ[٣] عَلَىٰ لِحْيَتِهِ ﷺ، فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الْغَدِ، وَبَعْدَ الْغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ، حَتَّىٰ الْجُمُعَةِ الأُخْرَىٰ، وَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ -أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلاَ عَلَيْنَا**». فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلاَّ انْفَرَجَتْ، وَصَارَتِ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجَوْبَةِ[٤]، وَسَالَ الْوَادِي قَنَاةُ شَهْرًا، وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ

---

(١) (سَنَة): هي القَحْطُ والجَدْب.

(٢) (قَزَعَة): سحابة صغيرة.

(٣) (يتحَادَر): ينزل ويقطر.

(٤) (الجَوْبَة): هي الحفرة المستديرة الواسعة، وكل منفتق بلا بناء جوبة، والمراد: أي حتىٰ صار الغيم والسحاب محيطًا بآفاق المدينة. انظر: ابن الأثير، «**النهاية في غريب الحديث والأثر**»: ١/٣١٠.

إِلاَّ حَدَّثَ بِالْجَوْدِ. وفي رواية: وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ[1].

فالجماد له احترامه في تصور المسلم للوجود، وقد تعلَّقت كثير من العبادات بالمكان والزمان، وأوضح مثال على ذلك حركة المسلم في طوافه حول الكعبة، فإنها حركةٌ تُشبِه كثيرًا حركةَ النجوم والأجرام السماوية في أفلاكها حول مركزها، وتُشبِه أيضًا حركة الإلكترونات في مساراتها حول النواة داخل الذرة، مما يعكس صورةً رمزيةً لوَحدة البناء بين أعظم المخلوقات وأدقِّها، فينطق بأنه سبحانه خالق كل شيء، وأن الكون عبارة عن مسجد كبير اشتركت فيه الكائنات سجودًا وتسبيحًا لخالقها.

والإنسان وجميع الموجودات خاضعون لقانون واحد وسُنَّةٍ واحدة تتحكم في تَحَرُّكِهِم وسُكُونِهِم، وهذا النظام يعبر عن وَحدة الخالق، وتظهر فيه سُنَنُ الله في خلقه. فلكل موجود ممكن دورة حياة، تبدأ بالوجود ثم النماء ثم الضُّمُور فالموت، وهو أمر يصيب كل شيء من حولنا، سواء في ذلك الجماد والحيوان والإنسان، حتىٰ النجوم والمجرات لها أعمار وآجال، بانتهائه تدخل في دورة حياة كائنات أخرىٰ، وتفقد صورتها الأولىٰ، وتتحول إلىٰ صُوَرٍ أخرىٰ متعددة.

---

(١) أخرجه البخاري: ١/٣١٥ برقم (٨٩١).

قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة الزمر، آية: ٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [سورة الروم، آية: ٥٤].

فالموجودات تتشابه في أطوار التكوين وتتابعها عليها بين الضعف والقوة والنقص والكمال، ولكل موجود أَجَل وعُمر مُقَدَّر، لا يتقدم عليه لحظة ولا يتأخر، ينتهي دورُه في الكون بانتهاء أجله.

وكذلك فهناك تشابه في التكاثر بين المخلوقات، حيث خلق الله -سبحانه وتعالىٰ- من كل شيء زوجين متجاذبين تتولد الطاقة أو الحياة من التقائهما، فالحياة كلها تعتبر آية ساطعة علىٰ التوحيد تظهر علىٰ وجه الكائنات صغيرها وكبيرها.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الذاريات، آية: ٤٩].

عَلاقةُ التَّسْخير

إن الإسلام حرَّرَ الإنسان من عبودية عالم الأشياء، وجعله يتحرر من رهبتها أو مراقبتها بِتَوَجُّس، فأصبح يتعامل معها من منظور السلطة والسيادة، فلا يُفَوِّتُ أيَّ فرصة للانتفاع بما سخَّرَه الله فيها.

والإنسان لا يستطيع أن يصلَ من التأمل في الكون إلىٰ معرفة نظامه وقوانينه إلا إذا وَثِقَ بنفسه أولًا، وآمن بأن الكون المشاهدَ خاضعٌ لإدراكه وبحثه، وبأن ظواهره ليست بالشيء المُبهَم الغامض الذي لا يُفَسَّر، وبأن في مقدوره الاستفادةَ من الكون واستغلالَ خيراته علىٰ أوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها.

وتأكيدُ القرآن علىٰ أن الكون كلَّه مسخَّرٌ للإنسان هو في نفس الوقت تأكيد علىٰ روح المنهج العلمي الصحيح، الذي يحاول دائمًا استكشافَ ما هو مجهولٌ من هذا الكون وظواهرِه علىٰ أساسٍ من الثقة بقدرة الإنسان وبالعلم في مواجهة الطبيعة[1].

---

(١) أبو الوفا التفتازاني: «**الإنسان والكون في القرآن**»، مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، العدد الثالث، ص١٠٧.

فالإنسان جزء من الكون، لكنه تميز عليه بعَلاقته الخاصة مع الخالق، فهو المُكَلَّف بحمل الأمانة التي شَقَّ علىٰ السموات والأرض والجبال تحمُّلُها؛ لأنها مسئولية، فارتضت الكائنات أن تكون مُسخَّرَةً للإنسان يُسْأَلُ هو عنها.

وقد تميَّز الإنسان أيضًا علىٰ بقية المخلوقات بأنه خُلِقَ مُعَدًّا لاستيعابها معرفيا، فباستطاعته أن يَنقُلَ العالَمَ الخارجي في صورته الكَمِّيَّة والكَيفِيَّة إلىٰ عالَمه الداخلي، فاستحق بقدرته المعرفية أن يحمل أمانةَ الخلافة.

والملكات والقدرات التي مُنِحَهَا الإنسانُ وفُضِّلَ بها إنما هي ليتمكنَ من الاستفادة بما سُخِّرَ له في الكون من منافع، ولم تكن للسيطرة علىٰ الكون والتعالي عليه، والشعورِ بالسيادة المُطلَقة فيه، فإن تلك القدرات التي وُهِبت للإنسان لتُمَكِّنَه من فهم وإدراك سُنن الله المودعة سَلَفًا في كونه، وبمعرفتها يتمكن من الانتفاع بخيرات الكون التي سخَّرَها الله له.

إذن فليست ملكاتُ الإنسان وقدراتُه هي التي سَخَّرَتْ له الكونَ ومَكَّنَتْهُ منه، ودليل ذلك:

١- أنا نرىٰ أضعف الخلق كالذباب يمكنه أن يخترق كلَّ الحُجُز

ويصل إلىٰ الإنسان فيسلبه شيئًا لا يستطيع استنقاذه منه، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [سورة الحج، آية: ٧٣].

٢- وكذلك نرىٰ أضعف الناس جسمًا كالطفل الصغير وأضعفهم عقلًا كالمجنون يستطيع التحكم فيما سُخِّرَ للإنسان نفعه كالماء والحيوانات الضخمة وغيرها، تنفعل له وتستجيب لقياده لا لقدرة بدنية أو عقلية فيه.

٣- وقد تنفعل الطبيعة مع الإنسان دون قصد منه، كأن يمر في طريق فتطأ قدمه بذرة فتصير شجرة فيأكلها حيوان فيصيده الإنسان فيأكله، فيجعله الله سببًا في حياة دون أن يدري ذلك.

ونخلص من ذلك بأن الكون سُخِّرَ للإنسان بإرادة الله وقدرته، وليس لِتَمَيُّزِهِ وقوته دَخْلٌ في ذلك التسخير.

٤- والطبيعة قد تنفعل بذاتها بإذن الله فتحافظ علىٰ قدرتها ونضارتها وجمالها، فحتىٰ فترة وجيزة من التاريخ كان الإنسان يَعْثُرُ في الأرض علىٰ أماكن لم تطأها قدم إنسان من قبل، وقد حظيَت الطبيعة فيها بخيرات وحياة وجمال ينبهر به الإنسانُ.

مما يكشِف للإنسان عن مُسَبِّبٍ أول وخالقٍ أعلىٰ لهذه الأرض، أودع فيها القدرةَ علىٰ المحافظة علىٰ خيراتها ملايين السنين دون أن يعلم عنها إنسانٌ شيئًا.

٥- ويثبت التاريخُ والمشاهدات والتجارب عن حالات كثيرة تتخلف فيها مظاهر الكون عن سيطرة الإنسان وقبضته، فتنخرق السُّنَّة التي يظن الإنسان أنه أحاط بكل أسرارها واستنفذ جميعَ أسباب إقامتها، فالمؤمن يعلم أن مِن وراء ذلك إلهًا واحدًا، وأنه لا سلطان حقيقًا في الكون غير سلطانه، ولا قوة قاهرة غير قوته، ولا ملك إلا ملكه.

ويحكي لنا القرآن عن بعض الملوك المتجبرين والفراعنة في الأرض الذين ظنوا أن سلطانهم فوق كل قوة، قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف، آية: ٥١].

وكأن تسلطه علىٰ الأرض والماء في بقعة من الأرض يعطيه الحق في استعباد الناس. وقد سعىٰ لاستعبادهم بكل سبيل، ولم يتصور أن يَخْرُجَ موسىٰ وقومه علىٰ إرادته وبطشه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ

طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورة القصص، الآيات: ٤-٦].

فكل القوانين الكونية أو التوقعات البشرية لَتُؤَكِّدُ أن فرعون منتصرٌ، فبعد أن تجبر في أرض مصر وتكبر وعلا أهلَها وقهرهم، حتىٰ أقروا له بالعبودية- فلا يمكن لموسىٰ ومن تبعه أن ينجو من بطشه، فضلًا أن يتحقق له ما وعده الله به. وأنجزه وعده، قال: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً) ولاة وملوكًا (وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) نورثهم ملك آل فرعون في الأرض. (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)، ولولا أن تدخلت إرادة الله وقوته فقلبت الموازين وغيرت السنن في اتجاه نصرة الحق ونجاة أصحاب المنهج ما كانت تلك النتيجة.

ولا يمكن لإنسان العصر أن يستقر نفسيًّا ويأخذ وجهته الصحيحة نحو إنجاز رسالته علىٰ الأرض- إلا إذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره، ذلك أن الكون كلَّه شأنٌ من شئون الله -تعالىٰ-: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [سورة آل عمران، آية: ١٠٩] فهو -تعالىٰ- خالق الكون بما فيه الإنسان،

وهو الذي ركَّب العقل في الإنسان ليُعَمِّرَ به الأرض لا ليدمرَها، وليَعرِف به خالقَه لا لِيُلْحِد، وحاوِلْ أن تضع الإنسانَ في إطار الكون كله وقوانينِه الحتمِيّة لا في إطار قدرته الخاصة المحدودة- لترىٰ أن ليس للإنسان قدرةٌ علىٰ توجيه مجرىٰ الحوادث الكونية وفقَ مشيئته؛ لأن هذا من شأن خالق الأشياء جميعًا ومدبرِها، وهو الله[1].

(١) المرجع السابق: ص١٣١.

العَلاقة بين الإنسان والأرض

إن العَلاقة المُتَصوَّرة في المنظور الإسلامي بين الإنسان والأرض لَهِي أدعىٰ إلىٰ الألفة والارتباط بينهما فضلًا عن المحافظة والتنمية، أو الاقتصارِ علىٰ التفكُّر والتدبر، فالعَلاقةُ بين المسلم والأرض تدور في ثلاثة مستويات، أدناها وأقربها مستوىٰ الانتفاع بالتسخير: وهو ما يتعلق بالجَسد، وأوسطها مستوىٰ التفكُّر والاعتبار: وهو ما يتعلق بالعقل، وأعلاها مستوىٰ المحبة والأُلْفَة: وهو ما يتعلق بالرُّوح.

١- قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [سورة نوح، الآيات: ١٧-٢٠].

فولاءُ الإنسان للأرض وحَنينُه إليها يُشبه حنينَ الابن إلىٰ أمه، فإنه منها خُلِق، ومن خيرها يأكل ويشرب، وفي أحضانها يُدْفَن.

٢- قال تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه، آية: ٥٥].

٣- وقال ﷺ: «وَتَحَفَّظُوا مِنَ الأَرْضِ فَإِنَّهَا أُمُّكُمْ»[١].

٤- وَعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَوْ جُرْحٌ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا -وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا: «بِاسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا»[٢].

قال الإمام النَّوَوِيُّ: قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاء: الْمُرَاد بـ«أَرْضِنَا» هُنَا: جُمْلَة الْأَرْض. وَقِيلَ: أَرْض الْمَدِينَة خَاصَّة؛ لِبَرَكَتِهَا. وَالرِّيقَة أَقَلُّ مِنْ الرِّيق. وَمَعْنَى الْحَدِيث: أَنَّهُ يَأْخُذ مِنْ رِيق نَفْسه عَلَى أُصْبُعه السَّبَّابَة ثُمَّ يَضَعهَا عَلَى التُّرَاب فَيَعْلَقُ بِهَا مِنْهُ شَيْءٌ، فَيَمْسَحُ بِهِ عَلَى الْمَوْضِع الْجَرِيح أَوْ الْعَلِيل، وَيَقُول هَذَا الْكَلَام فِي حَال الْمَسْح. وَاللهُ أَعْلَم.

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: قَدْ شَهِدَت الْمَبَاحِث الطِّبِّيَّة عَلَى أَنَّ لِلرِّيقِ مُدْخَلًا فِي النُّضْج وَتَعْدِيل الْمِزَاج، وَتُرَابُ الْوَطَن لَهُ تَأْثِير فِي حِفْظ الْمِزَاج وَدَفْع الضَّرَر، فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسَافِرِ أَنْ يَسْتَصْحِبَ تُرَابَ أَرْضه إِنْ عَجَزَ عَنْ اِسْتِصْحَاب مَائِهَا، حَتَّى إِذَا وَرَدَ الْمِيَاه

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير»: ٥/٦٥، برقم (٤٥٩٦)، وقال الهيثمي في «المَجْمَع» ١/٥٥٠: رواه الطبراني في «الكبير» وفيه: ابن لَهِيعَة، وهو ضعيف.

(٢) متفق عليه، البخاري: ٥/٢١٦٨ برقم (٥٤١٤)، ومسلم: ٤/١٧٢٤ برقم (٢١٩٤).

الْمُخْتَلِفَة جَعَلَ شَيْئًا مِنْهُ فِي سِقَائِهِ لِيَأْمَن مَضَرَّة ذَلِكَ[1].

إذن فهناك عاطفة تربط الإنسان بالأرض التي نشأ فيها وتربّىٰ، ولا نكير في ذلك، بل هو مما حَضَّ عليه الشرع وورد به، فَذَوو الفطرة السليمة يشعرون دائمًا بالشوق والحنين إلىٰ أوطانهم ولا يشعرون بالأُلفة أو الطمأنينة قدر ما يشعرون بها في بلادهم.

٥- والقرآن يُصوِّر عَلاقة الأُلْفَة والمحبة التي تنشأ بين الأرض والسماء وبين الإنسان، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [سورة الدخان، آية: ٢٩].

وهذا انفعال بين الإنسان والأكوان، فقد روىٰ الطبري عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: أَتَىٰ ابْنَ عَبَّاسٍ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا ابن عَبَّاسٍ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ فَهَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَىٰ أَحَدٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا لَهُ بَابٌ فِي السَّمَاءِ مِنْهُ يَنْزِلُ رِزْقُهُ، وَفِيهِ يَصْعَدُ عَمَلُهُ، فَإِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَأُغْلِقَ بَابُهُ مِنَ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ،

(١) النووي، «المِنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحَجّاج»: ١٤/١٨٥، المطبعة المصرية ط١- ١٩٣٠م، وابن حجر، «فتح الباري، شرح صحيح البخاري»: ١٣/١٧٦، تحقيق: أبو قتيبة نظر الفاريابي، دار طيبة ط١- ٢٠٠٥م.

وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، بَكَىٰ عَلَيْهِ، وَإِذَا فَقَدَهُ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا، وَيَذْكُرُ اللهَ فِيهَا بَكَتْ عَلَيْهِ، وَإِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ آثَارٌ صَالِحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْعَدُ إِلَىٰ السَّمَاءِ مِنْهُمْ خَيْرٌ، فَلَمْ تَبْكِ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ»[1].

(١) أخرجه الطَّبَريّ في تفسيره «**جامع البيان، في تأويل القرآن**»: ٣٤/٢٢، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٠م، وذكره السيوطي في «**الدُّرّ المَنثور، في التفسير بالمأثور**»: ٢٧٤/١٣، دار الفكر- بيروت ١٩٩٣م.

الأمر العام بالرحمة والرِّفق بجميع الخلق

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ١٠٧].

فكان رسول الله ﷺ رحمةً بالخَلْق أجمعين، إنسِهم وجِنِّهم، رحمةً بالحيوان والنبات والجماد، وأَعْظِمْ بِالرَّحْمَةِ هداية الناس إلىٰ المعرفة، معرفة الخالق ومعرفة الخلق، وتحديد المنهج القويم في عبادة الخالق، ورحمة الخلق والانتفاع بما سُخِّرَ فيهم من خيرات:

١- فَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلاَّ عَلَىٰ رَحِيمٍ**». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَكُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «**لَيْسَ الَّذِي يَرْحَمُ نَفْسَهُ خَاصَّةً، وَلَكِنِ الَّذِي يَرْحَمُ النَّاسَ عَامَّةً**»(١).

٢- وقد أمَر النبي ﷺ بالرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات فقال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي**

---

(١) أخرجه أبو يَعلىٰ في «مسنده»: ٧/٢٥٠ برقم (٤٢٥٨)، والبيهقي في «شُعَب الإيمان»: ٧/٤٧٩ برقم (١١٠٦٠).

الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1].

قَالَ الطِّيبِيُّ: لِأَنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْخَلْقِ رِقَّةُ الْقَلْبِ، وَالرِّقَّةُ فِي الْقَلْبِ عَلَامَةُ الْإِيمَانِ، فَمَنْ لَا رِقَّةَ لَهُ لَا إِيمَانَ لَهُ، وَمَنْ لَا إِيمَانَ لَهُ شَقِيٌّ، فَمَنْ لَا يُرْزَقُ الرِّقَّةَ شَقِيٌّ.

«مَنْ فِي الْأَرْضِ» بِصِيغَةِ الْعُمُومِ، يَشْمَل: جَمِيعَ أَصْنَافِ الْخَلَائِق، فَيَرْحَمُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَالنَّاطِقَ وَالْبُهْمَ، وَالْوُحشَ وَالطَّيْرَ[2].

وقال ابن بَطّال المغربي (ت٤٤٩): فيه الحَضُّ علىٰ استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرِهم ومؤمنِهم، ولجميع البهائم -المملوك منها وغير المملوك- والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوبَ ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا. ويدخل في الرحمة: التعاهد بالإطعام والسقي، والتخفيف في الحمل، وترك التعدي بالضرب[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: ٤/٣٢٣ برقم (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) المُبارَكْفُوري، «تُحفة الأَحْوَذِي، بشرح جامع الترمذي»: ٦/٥١، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر.

(٣) ابن بَطَّال، «شرح صحيح البخاري»: ٩/٢١٩، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد.

وقال العارف البوني: فإن كان لك شوق إلىٰ رحمة من الله فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهلَ بعلمك، والذليلَ بجاهك، والفقيرَ بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعُصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ورفع غضبك، فأقربُ الناس من رحمة الله أرحمُهُم لخلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جلَّ فهو صادر عن صفة الرحمة[1].

٣- وقال ﷺ: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ؛ وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**»[2].

(**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا**)؛ لأن الرحمة من صفات الحق التي شمل بها عباده، فلذا كانت أعلامًا اتصف بها البشر، فندب إليها الشارع في كل شيء حتىٰ في قتال الكفار والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك. (**وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ**)؛ لأنه -سبحانه وتعالىٰ- يحب أسمائه وصفاته التي منها الرحمة والعفو، ويحب من خلقه من تَخلَّق بها. (**وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ**)، أي: شِدَّة هَلَكَةِ من لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب

---

(١) المُناوي: «**فيض القدير، شرح الجامع الصغير**»: ٤/٤٢، المكتبة التجارية- مصر، ١٣٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في «**المسند**»: ١١/٩٩ برقم (٦٥٤١)، والبخاري في «**الأدب الْمُفْرَد**»: ١/١٣٨ برقم (٣٨٠).

بآدابه، والأَقْمَاعُ جمع قِمَعٍ: الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع، شَبَّهَ استماعَ الذين يستمعون القول ولا يَعُونَهُ ولا يعملون به بالأقماع التي لا تَعِي شيئًا مِمَّا يُفْرَغُ فِيهَا[1].

٤- وقد أمر النبي ﷺ بالرفق في كل شيء، ولذلك يجب على المسلم إذا دخل داره أو خرج منها ألّا يدفع الباب دفعًا عنيفًا؛ لأن هذا منافٍ للُّطف والرفق، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**»[2].

والرحمة العامة التي أمر بها النبي ﷺ دائرة أوسع وأشمل من كل معاني المحافظة والرعاية للبيئة الإنسانية، التي يمكن أن نجد دعواها في أي شريعة أو فلسفة، في أي مكان أو زمان غير الإسلام.

(١) المُناوي، «فيض القدير، شرح الجامع الصغير»: ١/٤٧٤.

(٢) أخرجه مسلم: ٤/٢٠٠٤ برقم (٢٥٩٤).

مفهوم الخلافة في المنظور الإسلامي

استخلاف الإنسان في الأرض هو أمر من الله -تعالىٰ- بالمحافظة عليها ورعايتها، وتوكيلٌ منه سبحانه للإنسان بإعمارها وإصلاح ما يطرأ عليها من فساد.

١- قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٦].

٢- قال تعالىٰ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [سورة ص، آية: ٢٦].

يلاحظ في الآية الأولىٰ حرصُ الملائكة علىٰ الأرض -من حيث إنها مخلوقة لله- وخشيتُهم علىٰ ما يصيبها من الفساد بفعل الإنسان، (قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا). وفساد الأرض يتعلق بالمكان والزمان. (وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ). وسَفْكُ الدماء يتعلق بالإنسان، إذن فقد كانت خشيتُهم تتعلق بالإنسان أيضًا؛ لأنه مخلوق لله، يستحق الرحمة والرعاية.

وتظهر الوَحدة البِنائية في النَّص من خلال عرضها لثُنائية الأرض والإنسان في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥] (لِيُفْسِدَ فِيهَا) فساد الأرض (وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ) هلاك الإنسان بهلاك الغذاء وهلاك النسل.

فقد علمت الملائكة مِن خلْق آدم أنه سيكون مختارًا، يختلف بذلك عن غيره من الكائنات والمخلوقات، والمختار يجوز في حقه ورودُ المخالفة للمنهج، علىٰ عكس الكائنات التي تُؤْمَرُ فتطيع، تُعَلَّمُ فَتَعْلَم، فلا يمكنها مخالفة المنهج، ولا تتعلق إرادتها بذلك. ونظرت الملائكة إلىٰ ما رُكِّبَ في الإنسان من انفعالات ورغبات وشهوات، وظنَّت أنه حتما سَيَدْفَعُهُ اتِّبَاعُهَا إلىٰ النُزوع إلىٰ التقاتل والهَرْج من أجل السيطرة والتسَلُّط.

ولكن الملائكة حينما بَيَّنَ لهم الله -تعالىٰ- ما خَفِي عنهم في خلق آدم من قدرة علىٰ تحصيل العلم والمعرفة وإعادة تراكيبها واستدعائها (قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ).

ويستفاد من ذلك أن فساد الإنسان والبيئة مُتعلِّق بفعل الإنسان وسلوكه، فإن غلبت عليه الشهواتُ والهوىٰ، وحاد عن العقل والعلم

كان هلاكًا لنفسه ولغيره، وإن غلب عقلُه وتدبره، وسعىٰ لتحصيل العلم والحكمة فإنه سيوافق السنة والمنهج (الحق) الذي قام عليه الخلق، ويصير فعله إعمارًا وبناءً وإبداعًا.

ويلاحظ في الآية الثانية ما جاء فيها من ذكر الخلافة والأرض والحق، فالحق هو الله -سبحانه وتعالىٰ-، والحق هو الذي قام عليه الخلق، فإن الله -سبحانه وتعالىٰ- لم يخلق شيئًا عبثًا أو لعبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء، الأيات: ١٦-١٨].

قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان: ١١٥-١١٦].

فالله -سبحانه وتعالىٰ- عندما جعل داود خليفة في الأرض طلب منه الحكمَ بالحق، والحقُّ مرادف العدل والصلاح وضدُّ العبث واللعب والفساد، وأصل المُلك الذي أُوتِيَهِ داودُ الخليفةُ هو القيام بالحق؛ ولذلك أعقبه بقوله: (وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ)، والهوىٰ هو

الجانب الذي ظهر للملائكة أولًا في خلق آدم، فكان حكمُهم على الإنسان بأنه سيفسدُ في الأرض ويسفك الدماء. والحقُّ هو العقل والعلم، وهو الجانب الذي خفي عن الملائكة أول الأمر.

وقد أمر الله -سبحانه وتعالى- النبيَّ محمدًا ﷺ أن يحكم بالحق والقسط؛ لأن ذلك طريق المحبة والقربى من الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة، آية: ٤٢].

٣- وسيادة الإنسان على الكون سيادة انتداب، وليست سيادة تَمَلُّك وتَسَلُّط مُطلَق، فالإنسان قائم بما يقوم به المُوَكَّل من الحفظ والرعاية، وذلك مفهوم الخلافة الذي جاء به الإسلام.

ولذلك فالإنسان مسئول عن الأمانة التي حَمَلَها، مسئول عن إحسانه وإتقانه أو إساءته وإفساده، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سورة الملك، آية: ٢].

وقال تعالى في نفس السورة بيانًا للإحسان في العمل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك، آية: ١٥].

فقد سَخَّرَ الله الأرضَ وجعلها مُذَلَّلَةً للإنسان كي يستفيدَ من خيراتها، فوجب عليه العملُ والسعي؛ لتحصيل نفعها والإصلاح فيها.

وقد جاء في سُنّة النبي ﷺ ما يؤكد علىٰ أهمية العمل بالنسبة للإنسان، وأهمية التربية علىٰ المنهج الذي يمنح الإنسانَ العزمَ والقوة والكرامة في حياته باستهدائه سُبُلَ العمل الشريف:

(أ) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ فَقَالَ: «**أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟**». قَالَ: بَلَىٰ حِلْسٌ[1] نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ[2] نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ: «**ائْتِنِي بِهِمَا**». فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟**». قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ: «**مَنْ يَزِيدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ**». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «**اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَىٰ أَهْلِكَ[3] وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا[4] فَأْتِنِي بِهِ**». فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ

---

(١) (الحِلْس): من معانيه: أنه اسم لما يُبسط تحت حُرِّ الثياب.

(٢) (القَعْبُ): قَدَحٌ من خشب مُقَعَّر.

(٣) أي: ادفعه إلىٰ أهلك.

(٤) (القَدُوم): هو آلة النجارة.

فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا». فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَىٰ بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ[1]»[2].

(ب) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَىٰ صُبْرَةِ طَعَامٍ[3] فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»[4].

---

(١) (الدقعُ): هو الفقر الشديد.
(غُرْمٌ مُفْظِع): هو أن تَلْزَمُهُ الدّيون الفظيعة الفادحة حتىٰ تتفرع به؛ فتحل له الصدقة، فيُعطىٰ من سهم الغارمين.
(موجع): أي يتحمل حمالة في حقن الدماء، وإصلاح ذات البَيْن، حتىٰ يؤديها.
انظر: بدر الدين العَيْني، «شرح سنن أبي داود»: ٦/٣٨٩- مكتبة الرُّشد.

(٢) أخرجه أبو داود: ١/٥١٦ برقم (١٦٤١) بهذا اللفظ، والترمذي: ٣/٥٢٢ برقم (١٢١٨) مختصرًا، وقال: حديث حسن.

(٣) (الصبرة): هي ما جُمِع من الطعام بلا كيل، والمراد بالطعام: جنس الحبوب المأكول.

(٤) أخرجه مسلم: ١/٩٩ برقم (١٠٢).

فدعوة الإسلام دعوة إلىٰ العمل الشريف، ورسالتُه تقول للإنسان: اعمل واجتهد في التنمية والإصلاح، وسيرىٰ اللهُ عملَك ورسولُه، وستجازَىٰ عليه، ولكن بشرف ودون غِشٍّ أو خداع. فالعمل بناء، والشرف منهج، والعمل لا يكون إيجابيًّا إن افتقد الشرف والأمانة.

فالغِشُّ يهدمُ السلامَ الاجتماعيَّ وَيُهْلِكُ الحركةَ الاقتصادية؛ لإحداثه حالةً مِنَ انْعِدَامِ الثقة بين الْمُتَبَايِعَيْنِ، كما يَقْضِي علىٰ السلام النفسي: بإشاعته الخوفَ والقلق، وإلقائِهِ التوجُّسَ والرّهبةَ بين الناس، وكل ذلك من مظاهر الفساد في حياة الإنسان.

دعوة الإسلام إلى النظر والتأمُّل في الكون

وهي دعوة للمحافظة على البيئة باكتشاف أسرارها ورعاية جمالياتها، فالحركة في الكون تُعَدُّ خِطابًا واضحًا ورسالة دالَّةً على عظمة الخالق، ولكن لا يستطيع قراءتها إلا ذوو النظر والعقل وأصحاب التأمل والفكر، ولذلك كان العلماء المؤمنون أكثر الناس يقينا في وجود الحق ووحدانيته.

ومصادر المعرفة لدى المسلم تتوزع بين الوحي والكون، ولا يصل المسلم إلى اليقين إلا عندما يأخذ عن كِلَيهما ويُحسِن النظر فيهما.

والوحي والكون كلاهما من الله من عالَم الأمر ومن عالَم الخلق، خاطبَ بهما عقلَ الإنسان وحِسَّه، ولكن الوحي تميَّز بالمباشرة والوضوح في توجيه الإنسان وتحديد المنهج السَّويّ، الذي يرسم له خُطَّةً يَسلُكُها في تعامله مع الكون ومع نفسه أيضًا، بالشكل الذي يجعله يستفيد ويستمتع بما سُخِّرَ له في الكون.

والنظر والاعتبار في الكون والوحي فرضٌ واجبٌ في الشريعة

الإسلامية، بل هو من أول الواجبات، فهو طريق مباشر يوصل العبدَ بربه، ومن ناحية أخرىٰ فالنظر حقٌّ للفرد في مجتمعه الإسلامي؛ لأنه طريقه إلىٰ العلم والمعرفة، فلا بد أن تُيَسَّر له كلُّ الأسباب والمُقوِّمات التي تُمَكِّنُه من الإحسان فيما تَصَدَّرَ له من بحث. فإن فَقِهَ أفرادُ المسلمين وجماعاتُهم إلىٰ هذا الواجب ارتقت علومُهم وزادت معارفُهم، وكانت بلادهم نموذجًا للحضارة الإنسانية المتكاملة.

١- والمسلم مَدْعُوٌّ بِنَصِّ الوحي إلىٰ النظر في جمال الكون وإحكام صُنعِه:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [سورة الملك، الآيات: ٣-٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ﴾ [سورة السجدة، آية: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت، آية: ٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ

﴿ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٦٤].

ويلاحظ ختامُ الآية بقوله: (لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) مما يَعني أنه لا يَنتفِع بتلك الدعوة الصريحة إلىٰ التأمل والنظر في الكون، فيَصِلُ من ورائها إلىٰ الإيمان بالخالق وإدراك سُنَنِهِ في خلقه- إلا أصحاب المنهج العقلي الموضوعي، أولئك الذين يجعلون عقولَهم مسيطرةً علىٰ رغباتهم وشهواتهم، وأولئك الذين يُهْدَوْنَ إلىٰ الحق الذي قام عليه الوجود.

ويلاحظ في الآية أنها تحدثت عن ثلاثة أشياء يمثلون الوجود، وهي: المكان (الأرض والسماء)، والزمان (اختلاف الليل والنهار)، والماء.

٢- وفي عبادات المسلمين ما يقوم أصلُه علىٰ التأمل والتفكُّر والإجلال لما في الكون من خلق وإبداع، وذلك كصلاة الكُسُوف والخُسُوف، وصلاة الاستسقاء.

قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا**»(١).

(١) متفق عليه، البخاري: ١/٣٥٣ برقم (٩٩٤)، ومسلم: ٢/٦٢٨ برقم (٩١١).

٣- والنظر والاعتبار يوجب على الإنسان الإيمانَ بوجود الخالق ووحدانيته، فمن الآيات التي تحدثت عن الإرادة العُليا لله في الكون، وأنه سبحانه لم يترك شيئًا للصُّدْفَة أو الطبيعة تتحكم فيه وتُدبِّر شئونَه بنفسها:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [سورة النمل، آية: ٦١]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [سورة الفرقان، آية: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان: ١٩-٢٠].

فالبحران مصدرهما السماء، وكلاهما من ماء، فسبحان من مَيَّزَ لكلٍ منهما: مكانَه، ومقداره، وتوزيعه في مساحات اليابسة، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر. وكلاهما على نفس الدرجة من الأهمية للحياة، وفي بَغْيِ أحدهما على الآخر فساد عظيم.

٤- ودَعَت الآيات الإنسان إلى النظر في طعامه:

قال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [سورة الكهف، آية: ١٩].

(فَلْيَنظُرْ)، أي: فليبحث ويفتش عن الطعام الصالح الزكي، وفي ذلك دعوة إلىٰ الانتقاء الذي يدعو الصانع إلىٰ تحسين صناعته والزارع أن يهتم بزراعته، طالما أن المسلم سيبحث عن الأجْوَد والأحسن، وسيتدرب علىٰ التذوق والاختيار، ولن يرضىٰ من البيئة عطاءً إلا أجودَهُ وأحسنَهُ. ولن يقبل ممن يقوم علىٰ الرعاية والتنمية إلا أحسن العمل وأتقنه.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢].

فالنظر في الآية الأولىٰ: تعلَّقَ بمسألة الانتفاع والتسخير، وفي الآية الثانية: تعلَّقَ بمسألة الاستدلال والاستهداء المعرفي، فالأُولىٰ: تستلزم الحضَّ علىٰ العمل والإحسان، والثانية: تستلزم الإيمان بخالق هذا الكون وصاحب النِّعَم المُودَعة فيه؛ فقد سَخَّرَ له سبيلَ الطعام مُيَسَّرًا مُذَلَّلًا.

٥- ودَعَت الآيات الإنسانَ إلىٰ التفكُّر في خلق الحيوان وتسخيرِه لنفع الإنسان:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [سورة النحل، آية: ٦٦].

ولا يمكن للإنسان معرفةَ قدرة الخالق إلا بالنظر والاعتبار في ملكوته، وفي الآية دلالة علىٰ قدرة الله علىٰ استخلاص الصلاح والخير والصفاء من رَحِمٍ ضده، فالحق -سبحانه وتعالىٰ- يضع يدَ الإنسان علىٰ الآيات والمعاني التي تجعله قادرًا علىٰ أداء الأمانة التي حَمَلَها، وذلك لا يكون إلا بالسعي إلىٰ إعمار الكون بإخراج المصالح والحقوق والخيرات من رَحِمِ المفاسد والشرور.

٦- ودَعَت الآياتُ الإنسانَ إلىٰ النظر في الرياح باعتبارها أولُ حركةٍ إعمارية في الحياة:

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [سورة الحجر، آية: ٢٢].

وفي الآية هدايةٌ إلىٰ دَور الرِّياح في النَّماء والحياة، بأمر مَن أرسلها وجعلها سببًا في تلقيح النبات وزيادته، وليست الرياحُ بذاتها تفعل، وإنما هي فقط تأتَمِر بأمر مُرسِلِها، وفِعْلُهَا يأتي تبعًا لأمره. ودليل ذلك أنها قد تأتي وبالًا ودمارًا لقوم، وفي نفس الوقت خيرًا

ولقاحًا لآخرين، فهي مُسَخَّرة ومؤتمرة، وليس فعلها من خير أو شر بإرادة منها.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [سورة فاطر، آية: ٩].

فالرياحُ تُعتَبر المرحلةُ الأولىٰ في دورة الحياة الأرضية؛ ولذلك نرىٰ الآيةَ ابتدأت بلفظ الجلالة تأكيدًا علىٰ أنه سبحانه المتفردُ بإرسالها مُحَرِّكةً للسحاب مبتدأةً لحركة الحياة علىٰ الأرض.

٧- ودَعَت الآياتُ الإنسانَ إلىٰ التفكُّر في جماليات الكون، وفي ذلك دعوةٌ للمحافظة علىٰ ما في البيئة من منافعَ وجمال:

قال تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة الحج، الآيتان: ٥-٦].

إذن فهناك ارتباطٌ بين الجمال والحق، فالحقُّ يقتضي من الإنسان الحفاظَ علىٰ أصل الوجود وعلىٰ جمالياته.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة لقمان، آية: ١٠].

وقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [سورة النمل، الآيات: ٦٠- ٦٢].

وفي الآية ارتباطٌ بين الجمال وبين الخلافة في الأرض، فقد جَعَلَنا المولى -تبارك وتعالى- خلفاءَ في الأرض؛ من أجل الاستمتاع بهذا الجمال، وتنمية وجوده، والمحافظة عليه. ووضوحُ هذا المفهوم في التصور الإسلامي من شأنه أن يجعلَ المسلمَ مُبْدِعًا في كل صناعة أو عمل.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۗ﴾ [سورة النحل، الآيات: ٣-٨].

بدأت الآياتُ بالحديث عن الحق الذي قام عليه خلقُ السموات والأرض، ثم تحدثت عن خلق الإنسان من نطفة، ثم تبادلت الآياتُ الحديثَ عن الضروريَّات والتحسينيات، أي المنافع المباشرة والجمال والزينة.

فالآية الخامسة: تحدثت عن الدِّفء والأكل والمنافع في الأَنْعام، والآية السادسة: تحدَّثَت عن البهجة التي يُحَصِّلُها الإنسانُ من نظره إلىٰ جمال الأَنعام، والآية السابعة: عادت تتحدث عن منفعة الأنعام في حَمل أثقال الإنسان إلىٰ المسافات التي لا يتيسر له بلوغُها إلّا بحصول المشقة البالغة، والآية الثامنة: تحدثت عن المُتعة في ركوب الأنعام للتنزه والترَيُّض، ومن أجل الزينة والمتعة. فقد تحدثت الآية السابقة عن الحمل، أي: النقل، فتكون المِنَّة في (لِتَرْكَبُوهَا) هي الجمال واللذة.

وعلىٰ الإنسان الاستفادةُ من التسخير الضروري والجمالي حتىٰ تحصل له الصحةُ المادية والمعنوية، الجسدية والنفسية والعقلية، وعليه حينها أن يحافظ علىٰ البيئة في بُعدَيْها: المنافع، والجماليات. وعليه أن يعملَ ويُحسِن ويتقن ما يحقق له المنافعَ، ويحقق له الإبداعَ الجمالي الذوقي.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر، الآيتان: ٢٧-٢٨].

مما يعكس أن رَوْحَ الله في خلق الكائنات ضَمَّت التنوعَ الشكليَّ، والتناسقَ اللوني، مما يحدث انبهارًا ومتعة بصرية لا فطور فيها.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ ﴾ [سورة فاطر، آية: ١٢].

سَخَّر لنا الشراب العذب والمِلح واللحم الطَّرِيَّ، ويلاحَظ هنا الأوصاف، فالماء العذب سائغ شرابه، والمِلح أُجاج، واللحمُ طَرِيّ، مما يعني أن المولىٰ -سبحانه وتعالىٰ- لم يَهَب لنا مُقَوِّماتِ الحياة فقط بل جعل فيها اللذة والجمالَ، ثم أعقب ذلك بذكر المِنَّة في خلق الحِليَةِ المُسْتَكِنَّة في قاع الأنهار والمحيطات كاللؤلؤ، نَلْبَسُه لِنَتجمَّلَ به ونَتَزَيَّن.

دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض

١- قال تعالىٰ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود، آية: ٦٢].

أي أمركم بعمارة الأرض، والعمارةُ تشملُ كلَّ عَمَل فيه إصلاح للأرض وتوفيرُ ضروريات المعاش فيها. والكون كلُّه بكل مظاهرِه وموجوداته مُسَخَّرٌ للإنسان، قائم علىٰ خدمته؛ فوجب عليه عمارتُه والمحافظة عليه.

وإعمار الكون مظهرٌ تتحقق فيه عبوديةُ الإنسان لخالقه؛ لأن المعرفةَ بأسرار الكون توصل الإنسانَ إلىٰ التماس نصيب من حكمة الله في الوجود، ويحتاج الإنسانُ من أجل القيام بوظيفة الخلافة، وتنفيذِ أمر الخالق بإعمار الأرض- أن يُطيل التدَبُّرَ والاعتبارَ في العلاقات الكلية والجزئية التي تجمعُ مفرداتِ الكون وتتحكمُ فيه، وبمعنى آخر: إن صلاح منهج الإنسان في الإعمار مرتبط بتكوين نظرة كُلِيَّة عن السبب الأول في وجود الخلق، وعن طبيعة العَلاقة التي تربط الإنسان بذلك السبب، والعَلاقة التي تَربِطه بِبَقِيَّةِ الكائنات في الوجود.

ويمكن فهمُ إعمار الأرض على أنه بذلُ الجهد لإقامة مجتمع فاضل عادل، تتحقق فيه للإنسان الكرامة التي أرادها الله له، وتتحقق للإنسان فيه الحرية التي هي مَناط المسئولية، وإقامة مجتمع: يسالم الطبيعة، ويسالم الإنسان، وتَسُود فيه قِيَم المحبة والرحمة.

٢- ولا بد أن تشمل عمليةُ الإعمار المطلوبة شرعًا جوانبَ الحياة الثلاث: المادَّة، الرُّوح، العقل، بتوازن وانضباط، بحيث لا يطغى جانب على آخر، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة وأقام المسجد، وكان أول إعمار يقوم به في المدينة، وكان عملًا إعماريًّا شمل الجوانب الثلاث من الحياة، كان إقامةً للبُنْيان وللإنسان، فقد كان مكانًا، يتجمع فيه المسلمون، ويَلجأُ إليه المعوزون، وتُسْتَقْبَلُ فيه الوفودُ، وتُؤَدَّى فيه العباداتُ الروحية، وتُلْقَى فيه الدروس والتعاليم التي ترسم المنهج، وكانت تُعْقَدُ فيه الألوِيَةُ، وتوزعُ فيه المهامُّ العسكرية، وتُرسم فيه الخُطَطُ، وتمارَسُ فيه الدعوةُ إلى الدين.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ١٤١].

والشاهد في الآية أنها جمعت بين مخاطبة العقل بالدعوة إلىٰ النظر والتأمل في القدرة والحكمة والجمال والتَّنَوُّع، وفي ذلك سعادة العقل بتحقيق المعرفة والعلم، وبين مخاطبة الحَواسِّ ودعوتها إلىٰ الأكل، وفي ذلك استمتاع الجسد بالتسخير المادِّي، وبين مخاطبتها الروح ودعوتها إلىٰ التزكية والطهارة حيث أَمرت الإنسان بالعطاء والبذل، مما يحقق للنفس والروح سعادتها وطمأنينتها. وخَتَمَت الآيةُ أوامرَها بعدم الإسراف، مما يعني: ضبطَ العلاقات والمقاديرَ.

٣- وعملية إعمار الأرض كما يتصورها الإسلامُ ذات شِقَّين، الأول: يتعلق بصلاح المنهج، والثاني: يتعلق بإتقان العمل والبناء وبذلِ الوُسع فيه.

ولا بد من انضباط كل من الشِّقَّيْن حتىٰ تنجح تلك العملية، وأساسُ صلاح البناء صلاحُ المنهج:

(أ) قال تعالىٰ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [سورة الحج، آية: ٤٥]

(وَهِيَ ظَالِمَةٌ): فساد المنهج؛ والذي أدىٰ إلىٰ فساد البناء والبيئة.

قال الطبري: «فَبَادَ أَهْلُهَا وَخَلَتْ، وَخَوَتْ مِنْ سُكَّانِهَا، فَخَرِبَتْ وَتَدَاعَتْ، وَتَسَاقَطَتْ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، يَعْنِي عَلَىٰ بِنَائِهَا وَسُقُوفِهَا...

وَمِنْ بِئْرٍ عَطَّلْنَاهَا، بِإِفْنَاءِ أَهْلِهَا، وَهَلَاكِ وَارِدِيهَا، فَانْدَفَنَتْ وَتَعَطَّلَتْ، فَلَا وَارِدَةَ لَهَا، وَلَا شَارِبَةَ مِنْهَا.... (وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ): رَفِيع بِالصُّخُورِ وَالْجَصِّ، قَدْ خَلَا مِنْ سُكَّانِهِ؛ بِمَا أَذَقْنَا أَهْلَهُ مِنْ عَذَابِنَا بِسُوءِ فِعَالِهِمْ، فَبَادُوا وَبَقِيَت قُصُورهُمُ الْمُشَيَّدَةُ خَالِيَةً مِنْهُمْ»[1].

(ب) وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [سورة الكهف، آية: ٥٩].

وقد ذكر ابن خلدون في «مقدمته» فصلًا في أَثَر الظلم وما يفعل في العُمران والحضارة: (فصلٌ في أن الظلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران)، قال: «واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مُؤْذِنٌ بانقطاع النَّوع البَشَري، وهي الحكمة العامة المُراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من: حفظ الدِّين،

(١) الطَبَري في تفسيره «جامع البيان، في تأويل القرآن»: ١٨/٦٥٤، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٠م.

والنفس، والعقل، والنَّسل، والمال»[1].

ومن المُشاهَد أنه إذا صاحب التَّقَدُّمَ المادِّي البِنائيَّ تَخَلُّفٌ عن القِيَمِ والفضائل الأخلاقية- فَسَدت البيئةُ، وانهدمت الحضارة، ففساد المنهج يمثل اصطدامًا للإنسان بالكون؛ يؤدي حتمًا إلىٰ شقاوته، ومعاناته للقلق والحَيْرَة؛ وذلك لأن الكون له منهج وسُنَن، وله عَلاقة بخالقه، فيها تسبيح وسجود، فإذا تصرف الإنسان بعشوائية وفَوضاوية دون نظام أو سُنَّة، وإذا قطع علاقته بخالقه ومصدر الوحي والمنهج- كان مصيره إلىٰ الجهل؛ لأنه قد انقطعت صلتُه بمَصدَرَي المعرفة: الكون، والإله. وصار متصادمًا مع كل الكائنات من حوله، يُفسِد حياتها وحياته من حيث يدري ومن حيث لا يدري.

(ج) وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [سورة هود، الآيتان: ١١٦-١١٧].

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢/٦٩٩، تحقيق: د/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

والآيات تشرح مَنهجًا مُحكمًا مترابطًا، غايته أنه ينهىٰ الإنسان عن الظلم، ويُوجِب عليه دفعه بالحق.

(وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ): مباشري الفسادِ بالظلم والإجرام، فسبب استئصالِ الأمم المُهلَكة فشوُّ الظلمِ واتباعُ الهوىٰ، مع ترك النهي عن المنكرات.

(د) وقال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [سورة محمد، آية: ٢٢].

إن تَوَلَّيْتُم عن المنهج الإلهي ستكون نتيجةُ أفعالكم مؤديةً إلىٰ الفساد والهدم والقطيعة، الفساد علىٰ مستوىٰ الأرض، والقطيعة علىٰ مستوىٰ الإنسان، مما يُذَكِّرُ بالوَحدة البِنائية التي أشرنا لها من قبل.

(هـ) قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥].

فالتَّولي والإعراض عن المنهج الحق يؤدي حتما إلىٰ الفساد البيئي علىٰ مستوىٰ الإنسان ومستوىٰ الأكوان.

والوَحدة البِنائية في النص القرآني إضافة إلىٰ الوَحدة البنائية

في خلق الأكوان لهي أكبر الدلائل علىٰ وَحدانية الخالق الذي له الخلق والأمر.

٤- والمولىٰ -سبحانه وتعالىٰ- يقرن دائمًا الإيمان (المنهج) بالعمل الصالح (البناء)، ويقرن الحقَّ في الانتفاع بالواجب في العمل والإحسان:

(أ) قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [سورة المؤمنون، آية: ٥١].

(ب) وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ [سورة النمل، آية: ١٩].

فالنبي سليمان عليه السلام لما وجد الطبيعةَ قد استجابت له وسُخِّرَتْ له تسخيرًا خاصًّا، فصار يعلم لغةَ تخاطب الحشرات والطير- دعا ربَّه أن يكون شاكرًا له علىٰ هدايته إلىٰ صلاح المنهج، وأن يُعِينَه علىٰ الاستمرار في أداء العمل الصالح (البناء) الذي يرضاه الله.

(ج) وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة ص، الآيتان: ٢٧-٢٨].

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات اتبعوا المنهج وقاموا بالبناء، وهم الذين يؤمنون أن الله -سبحانه وتعالىٰ- قد أقام خلق السموات والأرض علىٰ الحق والعدل، ولم يَخْلُقْهُما عَبثًا أو لعبًا أو باطلًا، أما المفسدون في الأرض فهم الذين كفروا بالمنهج ولم يعملوا الصالحات؛ وذلك لسوء ظنِّهم واعتقادهم بربهم أنه خَلَقَ الكون عَبَثًا وباطلًا.

دعوة الإسلام إلى النهي عن الفساد والإفساد

النظام الكوني له سُنَن وقوانين مقدرة محكمة إن خرج عنها قِيد أنمُلة فَنَت أجزاؤه وتحطمت، وفي ذلك يقول تعالىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس، آية: ٤٠].

وقد خلق الله -عز وجل- الكونَ وجعله يقوم علىٰ عَلاقات تَوافُقِيَّة بين أجزائه، جاءت صورها في المدِّ والجَزْر، وفي قوىٰ الجذب والطرد التي تحكم حركة النجوم في أفلاكها وحركة الإلكترونات في ذرَّاتها، ولو تغلبت قوىٰ الجاذبية علىٰ قوىٰ التنافر أو العكس لحدث اختلال عظيم وفسادٌ في الكون.

وهكذا فالنفس البشرية في علاقاتها مع الآخر -سواء كان جمادًا أو إنسانًا- مُرَكَّبَةٌ من قُوىٰ الجذب والطرد، وتأتي صورها في الحب والكره أو السلام والحرب، ولا بد أن يكون الإنسان متوازنًا في علاقاته حتىٰ لا يُحْدِثَ خللًا أو اضطرابًا في حياته.

١- قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ

أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٧].

(يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ)، أي: يُفسِدون المنهج، (وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ)، أي: يحدثون اختلالًا في العلاقات التَّوازُنيَّة بين مفردات الوجود، بِقَطْعِ ما حَقُّهُ الوَصْل ووَصْلِ ما حَقُّهُ القَطْع، فتضطرب عَلاقة الإنسان بالإنسان، وعَلاقة الإنسان بالله، وعَلاقة الإنسان بالكون، وهذه المعادلة تكون نتيجتها الخُسران والبَوار في الدنيا بفساد الحياة وتحصيل الشقاء، وفي الآخرة بضياع النعيم.

٢- وقد جعل الله الأصلَ في فطرة الإنسان وفي خلق الأكوان الصلاحَ والانتظام، وإنما يظهر الفساد في حياة الإنسان والكون بفساد الفطرة الإنسانية التي تدعو الإنسانَ إلى المَحبَّة والسلام، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الروم، آية: ٤١].

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إلى الأصل الذي تركوه، وهو أصل الصلاح، ورجوعهم يكون بالإصلاح لما أفسدوه في حياتهم، وباستهدائهم المنهج، وإحسانهم العمل.

٣- وقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٨٥].

أَمَرَ نَبِيُّ اللهِ شُعَيْبٌ عليه السلام قومَه بأن يُتِمُّوا للناس حقوقَهم ولا يُنقِصوهم إياها. وأَمْرُهُم بضبط الميزان هو ضبط العلاقات، وهو الحكم بالحق والعدل والمساواة، وهذا صلاح الإنسان والأرض علىٰ السَّواء.

٤- وأمر الله قارون عندما طغىٰ وأفسد وقطع العلاقات مع الخَلْق والخالق، وظن أنه يستطيع الاعتمادَ علىٰ نفسه وُجودًا وحفاظًا- فقال تعالىٰ: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص، آية: ٧٧].

٥- وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا ۚ ﴾ [سورة البقرة، آية: ١١٤].

لا أظلم ولا أفسد ممن منع الإصلاح الذي يُقيمُه أولياءُ الله في بيوت الله، بذكره وتعليم منهجه، ولا أظلم ممن سعىٰ في خرابها،

مادِّيًّا بإزالة البنيان، ومعنويًّا بالاعتداء على دَورها الإصلاحي، أو تهميش دورها في المجتمع حتى تصبح عاجزةً عن تزكية النفوس وتلقينها العلم والمعرفة اللذَين يَهْدِيَا الإنسان إلى إدراك الحق والعدل والصلاح، وفي ذلك اعتداء على حرية الإنسان وحرية العقيدة.

ولو أخذنا لفظ (مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ) على عمومه بمعنى الأرض كلها؛ فقد جعلت الشريعةُ الأرضَ مسجدًا وطهورًا، بنص رسول الله ﷺ- لكان تأويل الآية: لا أظلم ممن سعى في الأرض فسادًا باعتدائه على المنهج والفكر أو باعتدائه على البيئة والبناء الحضاري الإنساني.

٦- وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٥٦].

٧- وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [سورة الشعراء، الآيتان: ١٥١-١٥٢].

٨- ونهى النبي ﷺ أصحابَه عن الفساد في الأرض، فأوصاهم وهم يستعدون للقاء العدو: «**ألا تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا**

وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[1]. [وَلاَ تَحْرِقُوا كَنِيسَةً، وَلاَ تَعْقِرُوا نَخْلاً][2].

وهذه الوصية كررها أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- لجيش أسامة بن زيد حين قال: وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لاَ تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلاَ صَبِيًّا، وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا، وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلاَ تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلاَ بَعِيرًا إِلاَّ لِمَأْكُلَةٍ، وَلاَ تَحْرِقَنَّ نَخْلاً، وَلاَ تُفَرِّقَنَّهُ، وَلاَ تَغْلُلْ، وَلاَ تَجْبُنْ[3].

فالمسلم صاحب رسالة سلام لكل شيء، وليس حربًا على الطبيعة أو على الإنسان، وليس عابثًا أو مُدَمِّرًا.

العلاقة بين الحب والفساد:

وإنه ليوجد ارتباط عكسي في آيات الله بين الفساد والحب.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة، آية: ٦٤].

---

(١) أخرجه مسلم: ١٣٥٦/٣ برقم (١٧٣١).

(٢) وهذه الزيادة أخرجها عبد الرزاق في «مُصَنَّفِه»: ٢٢٠/٥ برقم (٩٤٣٠).

(٣) أخرجه مالك في «المُوَطَّأ»: ٤٤٧/٢ برقم (٩٦٥).

العداوة والبغضاء تؤدي إلىٰ الحرب والاعتداء، وهي سعيٌ في الأرض بالفساد.

و(ٱلْمُفْسِدِينَ) في قوله: (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) اسم فاعل من الفعل الرباعي أَفْسَدَ، وفيه إشارة إلىٰ أن الحب والسلام والصلاح هو أصل الخلق، والعداوة والبغضاء هي إفساد للأصل، وفي هذه الآية يخبرنا سبحانه عن عدم حبه للفاعلين الفساد، وفي آية أخرىٰ أخبرنا سبحانه عن عدم حبه لجنس الفساد فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٠٥].

وأَمَرَ الشَّرعُ الإسلامي بحماية الإنسان من نفسه، ولم يُعْطِه الحقَّ في قتلها أو إفسادها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٩٥].

فالله -سبحانه- يحب المحسنين ولا يحب المفسدين، يحب المُقسطين ولا يحب المُعتدين.

الإسلام والنهي عن الإسراف

الإسراف يعتبر تبديدًا لموارد الحياة، وقد نهىٰ الله عنه.

١- قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [سورة البقرة، آية: ٦٠].

فقد جعل -سبحانه وتعالىٰ- لكل سِبْطٍ من بني إسرائيل مَشْرَبًا من الحَجَرِ، وأعلمهم به كي لا يطغىٰ سِبطٌ علىٰ حق غيره، وقد فعل ذلك -سبحانه- لِما علمه من أمرهم من كثرة الاختلاف وكثرة التطلع إلىٰ نصيب الغير، ولكي لا يسرف أحدهم في الانتفاع بمشربه طامعًا في الاعتداء علىٰ حق غيره في انتفاعه بمشربه، ثم أعقب -سبحانه- ذلك بالنهي عن الفساد والذي يؤدي إليه الإسراف والاعتداء علىٰ حق الغير في الانتفاع.

فالإسراف يعتبر استنزافًا لموارد البيئة، ويؤدي حتمًا إلىٰ تشويهها، ويهدد وجودَ الإنسان حاضرًا ومستقبَلًا. وقد وردت آيات عديدة تَنهىٰ عن السَّرَف، وتأمر الإنسان بالوسطية والاعتدال:

٢- قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦-٢٧].

٣- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء، آية: ٢٩].

٤- وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان، آية: ٦٧].

٥- وقال تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٣١].

والإسراف اعتداء علىٰ حق الآخرين في الحياة، وعلىٰ حقهم في تحصيل ضروريات العَيْش، كالأكل والشرب من رزق الله.

الإسلام والأمر بالمشاركة في الانتفاع بما سَخّرَه الله في الكون

ومفهوم التسخير الإلهي كما يتضح في المنظور الإسلامي يُوجِب المساواة والمشاركة بين الناس جميعًا في التمكين من الانتفاع بمنافع الكون، وفي توفير القدر اللازم لاستمرار حياة الإنسان.

١- قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٩].

والآية فيها أكثر من دلالة علىٰ العموم، عموم النفع لعموم الجماعة الإنسانية، فالضمير في (لَكُم) والاسم الموصول (مَّا) و(جَمِيعًا) فيها دلالات العموم. و(جَمِيعًا) في مكانها من سياق الجملة يَصِحُّ أن تكون تأكيدًا علىٰ العموم الذي أفاده الاسم الموصول، ويصح أن تكون تأكيدًا علىٰ الضمير في (لَكُمْ) فيكون التأويل حينئذ إما: هو الذي خلق لكم جميعًا ما في الأرض. أو: هو الذي خلق لكم جميعَ ما في الأرض.

والاشتراك بين الناس جميعًا في أَحَقِّيَّةِ الانتفاع بضروريات الحياة أوجبته الشريعةُ الإسلامية من منطلَق المساواة في الإنسانية؛ ولذلك فيجب علىٰ المسلم أن يتعاون مع غيره في القيام بواجبات المحافظة علىٰ البيئة ورعايتها، كما اشتركا في حقوق الانتفاع بخيراتها، ولكن المسلم يتحمل واجبا أكبر من غيره، حيث ألزمته الشريعةُ تَحَمُّلَ واجب الدعوة إلىٰ المنهج السَّويِّ والدين القويم، والذي يمثل الشِّقَّ الآخرَ من عملية الإعمار.

٢- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٢٤].

(وَلَكُمْ)، أي: لجميعكم، وتفيد عموم الإنسان.

(فِي ٱلْأَرْضِ)، أي: جميع الأرض، وتفيد عموم المكان.

(مُسْتَقَرٌّ)، أي: موضع استقرار وأمان تتوفر فيه الضروريات الحياتية: المادية من غذاء ومُتَنَفَّس وحركة، والمعنوية من احترام وتكريم وحرية وعدل.

(وَمَتَٰعٌ)، أي: موضع تتحقق فيه جماليات وتحسينيات تُوَفِّرُ للإنسان الراحةَ والمتعة في إقامته علىٰ الأرض.

(إِلَىٰ حِينٍ): إلىٰ انقطاع الدنيا، وتُفيد امتداد الزمان.

والآية الكريمة جمعت كلَّ مفردات الوجود المشهود: الإنسان والمكان والزمان وأصول الحياة والجمال.

والآية وإن جاءت في صيغة خبرية ولكنها تُنْبِئُ الإنسان بمفهوم يترتب علىٰ استقراره في عقيدته عدةُ أوامر شرعية، تتعلق بمهمته في إعمار الكون وخلافته فيه بالحق الإلهي، فمن ذلك تشير إلىٰ أَحَقِّيَةِ بني آدم جميعًا في الانتفاع بما في الأرض جميعِها بما يوفر لكل فرد منهم الأمن والاستقرار والتمتع بجماليات الكون المُسَخَّر، وأن يستمر هذا الانتفاع طيلة بقائه في الدنيا، وأنه هناك مقدار أَوَّلِيٌّ يشترك فيه جميع الناس بِقَدْرٍ متساوٍ، وبِناء علىٰ ذلك فلا يحق لإنسان أن يحتكر حق غيره في الحياة والوجود بأن يستحوذ علىٰ القدر الذي يُمَكِّنُهُ من العيش آمنا حُرًّا كريمًا، عنده ما يكفيه من المأكل والمَلبَس والمسكن وبقية الضروريات والجماليات الأساسية.

٣- قال تعالىٰ: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة فصلت، آية: ١٠].

والشاهد في الآية قوله: (سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ). فكلمة (سَوَآءً) تشير إلىٰ معاني المساواة والمشاركة، فالله -سبحانه وتعالىٰ- قَدَّرَ في الأرض الأقوات والأرزاق للناس جميعًا، بمعنىٰ أنها لن تضيق بهم،

ولن تعجز يومًا عن كفايتهم الغذائية، ولن تُعطِي سائلًا وتمنع آخر، بل ستستجيب للجميع علىٰ سواء؛ وذلك لأنه لم تتعلق مشيئة الله أن تكون الأرزاق حِكرًا علىٰ جِنسٍ دون آخر أو دُولَة بين فئة وجماعة دون أخرىٰ، بل جعلها سواء للسائلين.

ولم يجعل الله عطاءه في الكون مرتبطًا بالاختيارات العقائدية للإنسان، فالكون يعطي الإنسان بصفته إنسانًا مخلوقًا لله، يعطيه علىٰ قدر جهده وعلمه، وعلىٰ قدر موافقته لسُنن الكون وقوانين تسخيره، وليس الأمر مرتبطًا بإيمان أو كفر؛ لأن الله -تبارك وتعالىٰ- أراد من الإنسان أن يأتيه طوعًا مختارًا محبًّا، ولو شاء سبحانه أن يُعَنِّته لَفَعَل، أو يجبره لجاء كما جاءت غيره من الكائنات ولم يتخلف، ولكي لا تكون الحاجة إلىٰ الطعام والشراب أو طلب الأمن دافعًا مُرغِمًا علىٰ الإيمان جعلها الله سواء بين من آمن به ومن كفر.

٤- وقال تعالىٰ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [سورة القمر، آية: ٢٨].

فالماء هو أصل الحياة علىٰ الأرض، وبدونه يهلك الإنسان والحيوان؛ ولذلك وجب علىٰ الجميع اقتسامُه، ولا يُحرَم منه إنسان.

وهذا التصور الإسلامي يَبْعُدُ كثيرًا عن المعاني العُدوانية أو الاحتكارية الموجودة في المذاهب المادية، التي تُصوِّر الإنسانَ مالكًا مطلقًا ليس عليه سلطان فيما يملك، ولكن التصور الإسلامي تَشِيع فيه قِيَم الأمانة ومعاني المحبة والسلام.

وفي السنة النبوية الكثير من معاني التكافل والمشاركة بين الناس:

٥- قال ﷺ: «**الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ، وَأَحَبُّ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**»[(١)].

٦- وقد قضىٰ النبي ﷺ بإشراك الناس في عهده في ثلاثة أشياء، هي: الماءُ والكَلَأُ والنار، وهي تمثل مصدر الحياة ومصدر الغذاء ومصدر الطاقة، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ، فِي الْمَاءِ وَالْكَلَإِ**[(٢)] **وَالنَّارِ، وَثَمَنُهُ حَرَامٌ**». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: يَعْنِي الْمَاءَ الْجَارِيَ[(٣)].

---

(١) أخرجه الطَبراني في «**الأوسط**»: ٣٥٦/٥ برقم (٥٥٤١)، والبَيْهَقِي في «**شُعَب الإيمان**»: ٤٣/٦ برقم (٧٤٤٥)، وأبو يَعلىٰ في «**مُسنده**»: ٦٥/٦ برقم (٣٣١٥).

(٢) العشب رطبًا كان أو يابسًا.

(٣) أخرجه أبو داود: ٣٠٠/٢ برقم (٣٤٧٧)، وابن ماجَه: ٨٢٦/٢ برقم (٢٤٧٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثٌ لاَ يُمْنَعْنَ: الْمَاءُ وَالْكَلأُ وَالنَّارُ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ فَضْلُ الْكَلأ»[2].

وجاء في بعض الروايات: «النَّاسُ شُرَكَاءُ».

والحديث الثاني والثالث يفسران الحديثَ الأول، بما يعني أن النبي ﷺ يخبرنا بأن الله جعل الأشياء الثلاثة مشتركة بين الناس، ولا يعني ذلك أن النبي ﷺ يوجب تقسيمها عليهم، ولكن غاية الأمر أنه يحق لكل شخص أن ينتفع منها بقدر حاجته، ويترك الباقي يذهب لغيره أو يسير في دورته في الكون.

والمشاركة تكون في أشياءَ كثيرة مما سخره الله للإنسان لينتفع به، ولكن الرسول ذكر الثلاثةَ لأهميتها، وفي روايات زاد عليها المِلح، وهذا قضاء من النبي ﷺ بصفته حاكمًا بين المسلمين، وكان المَقْصِدُ والعِلَّةُ من وراء هذا الحكم هو منع احتكار مثل هذه

(١) أخرجه ابن ماجه: نفس الموضع السابق، حديث رقم (٢٤٧٣).

(٢) متفق عليه، البخاري: ٦/٢٥٥٤ برقم (٦٥٦١)، ومسلم: ٣/١١٩٨ برقم (١٥٦٦).

الأشياء الضرورية اللازمة لحياة الإنسان وغيره على الأرض، وعليه فيجوز للحاكم المسلم أن يقضي من الأحكام والقوانين التي تمنع من احتكار الأشياء اللازمة لحياة الإنسان وصلاح البيئة.

والماء خاصة لا يَصبر على الحرمان منه كائنٌ حي؛ ولذلك تَوَعَّدَ النبي ﷺ من يقوم على ماء في موطن شدة وحاجة فيشرب منه ويمنع فضلَه ابنَ السبيل، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ، فَمَنَعَهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيلِ**»[1].

٧- والإسلام احترَمَ الملكية الفردية ومع ذلك أقر الملكية الجماعية، وجعل تنمية البيئة والمحافظةَ على مُدَّخراتها دائرًا بين هاتين الملكيتين، فغريزة التملك والسيطرة لدى الإنسان مُحترَمةٌ ومُعتبَرةٌ شرعًا، ولكن لا بد ألا تطغى على حق الجماعة في الانتفاع بضروريات الحياة كالماء والهواء والغذاء الضروري. وقد جعل الإسلام الملكيَّة -سواء كانت فردية أو جماعية- تعمل في خدمة الوجود الإنساني، فالإسلام يجعل حفظ البيئة دائرًا في مستويين من الحفظ، حفظ الفرد بصفته مالكًا أصليًا أو خليفة مباشرًا،

(١) أخرجه البخاري: ٢/٨٣١ برقم (٢٢٣٠).

وحفظ المجتمع والدولة والقانون بصفتهم مسئولين عن حفظ الممتلكات الفردية، وضمانها، وصيانتها من الاعتداء، ومعاقبة من يهدرها أو يُفَوِّتُ على الفرد والجماعة نفعَها.

فالملكية الفردية في المنظور الإسلامي سبيل وعامل يَحفِزُ على حفظ البيئة من باب تحفيزه على العمل والإتقان، ويتضح لنا كيف استخدم النبي ﷺ الملكية الفرديةَ في تنمية البيئة وزيادة كفاءتها وعطاءها للإنسان، حيث قال ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ**»(١).

والْأَرْض الْمَيْتَة هِيَ الَّتِي لَمْ تُعَمَّر، شُبِّهَتْ عِمَارَتُهَا بِالْحَيَاةِ وَتَعْطِيلُهَا بِالْمَوْتِ.

وفي هذا الحديث احترامٌ للعمل وتحفيز عليه، وتقدير للمجتهد ومكافأته، وفيه جعلُ الملكية الفردية دافعًا للأفراد إلى التعمير والبناء.

---

(١) أخرجه أبو داود: ٢/١٩٤ برقم (٣٠٧٣) والترمذي: ٣/٦٦٢ برقم (١٣٧٨) بهذا اللفظ عن سعيد بن زيد، وقد أخرجه البخاري: ٢/٨٢٣ برقم (٢٢١٠) بلفظ: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ» عن عائشة، وأورد تلك الزيادةَ: «وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ فِيهِ حَقٌّ» عن عمرو بن عوف تعليقًا.

الإسلام والأمر بالنظافة على مستوى الإنسان والبيئة

لقد جعل الإسلام الطهارةَ شرطًا في صحة العبادة، فاشترط لصحة الصلاة: طهارةَ الجسد، وطهارة المكان، وطهارة الثوب، وستر العورة.

وجعل الإسلام الطهارةَ سبيلًا مؤدِّيًا إلىٰ الحبِّ الإلهي.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٢٢]. وذلك في الطهارة المادية، أي نظافة البدن من خارجه.

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [سورة التوبة، آية: ١٠٨].

والطهارة هنا: نقاء النفس وصفاؤها، وطهارة الرُّوح والعقل، وصحة المنهج وسلامة التفكير.

وأَمَرَ الإسلام بالحفاظ علىٰ النظافة والطهارة في كثير من الآيات والأحاديث النبوية:

(أ) منَعَ من تلويث البيئة.

ومن ذلك:

١- عَنْ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَنْتَفِعُ بِهِ، قَالَ: «اعْزِلِ الْأَذَىٰ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ»[(١)].

٢- وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ»، قَالُوا: وَمَا اللَّاعِنَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَتَخَلَّىٰ فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ ظِلِّهِمْ»[(٢)]. يَتَخَلَّىٰ: يَتَغَوَّطُ أَوْ يَبُولُ.

٣- وَقَالَ ﷺ: «اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ». الْمَوَارِدُ: الْمَجَارِي وَالطُّرُقُ إِلَىٰ الْمَاءِ[(٣)].

(ب) أمَرَ الناسَ بالتداوي والعلاج، وأوجب الاجتهاد في البحث عن الدواء النافع:

فقال ﷺ: «تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الْهَرَمُ»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم: ٤/٢٠٢١ برقم (٢٦١٨)، وابن ماجه: ٢/١٢١٤ برقم (٣٦٨١).

(٢) أخرجه مسلم: ١/٢٢٦ برقم (٢٦٩)، وأبو داود: ١/٥٣ برقم (٢٥).

(٣) أخرجه أبو داود: ١/٥٤ برقم (٢٦)، وابن ماجه: ١/١١٩ برقم (٣٢٨)، والحاكم في «المُستدرَك»: ١/٢٧٣ برقم (٥٩٤) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود: ٢/٣٩٦ برقم (٣٨٥٥)، والترمذي: ٤/٣٨٣ برقم (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح.

(ج) أَمَرَ بمكافحة الأمراض ومَنْعِ انتشارها بين الناس:

وعَرَفَ الإسلام فكرة الحَجْر الصحي التي تمنع انتشار المرض من مكان لآخر، فقد أمر النبي ﷺ أصحابه أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ -يَعْنِي: الطَّاعُونَ- بِأَرْضٍ فَلاَ تُقْدِمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ[1].

(د) أَمَرَ بنظافة المكان:

وكان ﷺ نموذجًا وقدوة لأصحابه فقد كَانَ يَتْبَعُ غُبَارَ الْمَسْجِدِ بِجَرِيدَةٍ[2].

وعندما توفيت المرأة التي كانت تهتم بالمسجد وتقوم على نظافته، ولم يُبال الصحابة بأمرها كثيرًا، فعافوا أن يُنْبِئُوا النبيَّ بأمرها، ولكنهم وجدوه ﷺ يسأل عنها ويفتقد دورها، ولما أعلموه بموتها،

---

(١) عن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْه» والحديث متفق عليه، البخاري: ٣/١٢٨١ برقم (٣٢٨٦)، ومسلم: ٤/١٧٣٧ برقم (٢٢١٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شَيْبَة في «المُصَنَّف»: ١/٣٤٩ برقم (٤٠١٩).

حزن، ووبَّخَهُم لتصغيرهم أمرها وعدمِ إعلامه بموتها، بل وأكثر من ذلك ذهب وهم معه إلىٰ قبرها، فوقف عليه وصلىٰ عليها، فتبين لهم مِن تعظيمه شأنَها ومكانتها قيمةُ الدور الذي كانت تقوم به من نظافة المسجد، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ[1] الْمَسْجِدَ -أَوْ شَابًّا- فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا -أَوْ عَنْهُ- فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلاَ كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي». قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا -أَوْ أَمْرَهُ- فَقَالَ: «دُلُّونِي عَلَىٰ قَبْرِهِ». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّىٰ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلاَتِي عَلَيْهِمْ»[2].

(هـ) وأَمَرَ بنظافة اليد:

١- قال ﷺ: «بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ»[3].

والوضوء غسل اليدين والفم من الزُّهُومَة[4]، إطلاقًا للكل علىٰ

(١) (تَقُمُّ): أي تجمع القِمامة.

(٢) أخرجه البخاري مختصرًا: ١/١٧٦ برقم (٤٤٨)، ومسلم: ٢/٦٥٩ برقم (٩٥٦) بهذا اللفظ.

(٣) أخرجه أبو داود: ٢/٣٧٢ برقم (٣٧٦١)، والترمذي: ٤/٢٨١ برقم (١٨٤٦).

(٤) (الزُّهُومة): الرائحة الكريهة.

الجزء مجازًا أو بناءً علىٰ المعنىٰ اللغوي، قيل: والحكمة أن اليد لا تخلو عن تَلَوُّثٍ في تعاطي الأعمال فَغَسْلُها أقرب إلىٰ النظافة والنزاهة. والمراد من الوضوء بعد الطعام غسل اليدين والفم من الدسومات[1].

٢- وأَمَرَ ﷺ بغسل اليد فور القيام من النوم وقبل استعمالها في شيء، فقال: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْرِغْ عَلَىٰ يَدِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي إِنَائِهِ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي فِيمَ بَاتَتْ يَدُهُ**»[2].

(و) وأَمَرَ بنظافة الفم:

١- وأَمَرَ ﷺ بنظافة الفم وشدد علىٰ ذلك، حتىٰ قال: «**مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلاً فَلْيَعْتَزِلْنَا -أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا-، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ**»[3].

ومعنىٰ ذلك أنه من لم يحافظ علىٰ نظافة فمه وعلىٰ طِيب رائحته سَيُحرَم من الجماعة؛ لئلا يؤذي مجاوريه في العبادة.

٢- وأَمَرَ النبي ﷺ بمداومة نظافة الفم، وكان يحرص علىٰ

---

(١) محمد شمس الحق العظيم آبادي، أبو الطيب: «**عون المعبود، شرح سنن أبي داود**»: ١/١٦٨ دار الكتب العلمية.

(٢) متفق عليه، البخاري: ١/٧٢ برقم (١٦٠)، ومسلم: ١/٢٣٣ برقم (٢٧٨) وهذا لفظ مسلم.

(٣) متفق عليه، البخاري: ١/٢٩٢ برقم (٨١٧)، ومسلم: ١/٣٩٤ برقم (٥٦٤).

استعمال السواك حتىٰ في لحظاته الأخيرة، ويُلاحَظُ في اختيار النبي ﷺ للسواك كوسيلة لنظافة الفم أنه مستجلب من النبات فهو متوافق مع الإنسان، ويحقق طهارة الفم والأسنان واللثة، وسهل الاستعمال والحمل، ومتوفر بكثرة، ورخيص الثمن.

قال ﷺ: «مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[1].

وقَالَ: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي -أَوْ: عَلَىٰ النَّاسِ- لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ»[2].

(ز) وأمر بنظافة الشَّعر:

١- فقال: «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ»[3].

٢- ومثله ما رُوِيَ أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ الأَنْصَارِيَّ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ لِي جُمَّةً[4] أَفَأُرَجِّلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ وَأَكْرِمْهَا». فَكَانَ

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٨٢/٢ تعليقًا، وابن حبان في «صحيحه»: ٣٤٨/٣ برقم (١٠٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: ٣٠٣/١ برقم (٨٤٧) بهذا اللفظ، ومسلم: ٢٢٠/١ برقم (٢٥٢) بلفظ «عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ».

(٣) أخرجه أبو داود: ٤٧٥/٢ برقم (٤١٦٣).

(٤) (الجُمَّة): الشعر يسقط على المَنْكِبَيْن.

أَبُو قَتَادَةَ رُبَّمَا دَهَنَهَا فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ؛ لِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَكْرِمْهَا»[1].

٣- وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنِ اخْرُجْ، كَأَنَّهُ يَعْنِي إِصْلاَحَ شَعَرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ، فَفَعَلَ الرَّجُلُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِي أَحَدُكُمْ ثَائِرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ**»[2].

٤- وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَأَىٰ رَجُلاً شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ فَقَالَ: «**أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ**». وَرَأَىٰ رَجُلاً آخَرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ: «**أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ**»[3].

(ح) وأَمَرَ بنظافة الثوب:

١- فقد قال تعالىٰ آمرًا نبيه بتطهير ثوبه قال: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [سورة المدثر، آية: ٤].

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»: ٢/٩٤٩ برقم (١٧٠١).
(٢) الموضع السابق برقم (١٧٠٢).
(٣) أخرجه أبو داود: ٢/٤٤٩ برقم (٤٠٦٢).

٢- وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ[١] وَغَمْطُ النَّاسِ[٢]»[٣].

٣- وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَىٰ إِخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّىٰ تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ[٤] فِي النَّاسِ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلاَ التَّفَحُّشَ»[٥].

فينبغي أن تكون شخصية المسلم متميزةً بجمالها وكمالها.

(١) (بَطَر الحق): ألا يراه حقًّا، ويتكبر على قبوله.

(٢) (غمط الناس): احتقارهم.

(٣) أخرجه مسلم: ١/٩٣ برقم (٩١).

(٤) (الشَّامة): الْخَال في الجسد، والمراد: كونوا في أحسن زي وهيئةٍ حتى تظهروا للناس وينظروا إليكم كما تظهر الشامة ويُنظر إليها دون باقي الجسد. انظر: ابن الأثير، «النهاية في غريب الحديث والأثر»: ٢/١٠٧٠.

(٥) أخرجه أبو داود: ٢/٤٥٥ برقم (٤٠٨٩).

الإسلام والمحافظة على الماء

إن الماء هو أصل الحياة، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ٣٠].

وقال تعالىٰ عن تسخير الماء للإنسان: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ [سورة إبراهيم، آية: ٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٦٤].

١- وقد نهىٰ النبي ﷺ عن تلويث الماء، فَنَهَىٰ أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ[1].

والتبول في الماء الراكد لا يُفسِدُهُ فقط بل يجعله مُسْتَنْقَعًا ومَوْطِنًا لانتشار الأوبئة والأمراض.

---

(١) أخرج مسلم: ١/٢٣٥ برقم (٢٨١) عَنْ جَابِرٍ -رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَىٰ أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ.

٢- وأَمَرَ ﷺ بحفظ الطعام والشراب من الجراثيم فقال: «أَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ إِذَا رَقَدْتُمْ، وَغَلِّقُوا الأَبْوَابَ، وَأَوْكُوا الأَسْقِيَةَ، وَخَمِّرُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَلَوْ بِعُودٍ تَعْرُضُهُ عَلَيْهِ»[(١)]. (خَمِّرُوا الآنِيَةَ)، أَيْ: غَطُّوهَا.

٣- وَنَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ[(٢)].

وذلك لحماية الماء والطعام من الميكروبات المتصاعدة من الجوف.

٤- وكان ﷺ يشرب علىٰ ثلاثة أنفاس، ولا يَدْلِقُ الماء في جوفه دفعة واحدة، وكان يقول: «إِنَّهُ أَرْوَىٰ وَأَبْرَأُ وَأَمْرَأُ»[(٣)].

وقد كان الأعرابي في الجاهلية يشرب دفعة واحدة، فَيَنْدَلِقُ الماء علىٰ صدره ويتساقط علىٰ لحيته، مما يعكس صورة شخص بدائي غير متحضر، يتناول الأشياء بِنَهَمٍ وشراهةٍ، وهذه صورة أراد النبي ﷺ أن يفارقها المسلم في أسلوب طعامه وشرابه، كي يظهر بصورة متحضرة ونظيفة.

---

(١) أخرجه البخاري ٥/٢١٣٢ برقم (٥٣٠١).

(٢) أخرجه أبو داود ٢/٣٦٤ برقم (٣٧٢٨)، والترمذي ٤/٣٠٤ برقم (١٨٨٨) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه ٢/١١٣٤ برقم (٣٤٢٩).

(٣) أخرجه مسلم ٦/١١١ برقم (٥٤٠٦).

٥- ونهىٰ عن الإسراف في استعمال الماء، ولو تعلَّقَ الأمر بالعبادة كالوضوء، فَقَدْ مَرَّ ﷺ بِسَعْدٍ -رضي الله عنه- وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ: «مَا هَذَا السَّرَفُ؟». فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَىٰ نَهرٍ جَارٍ»[1].

(١) أخرجه ابن ماجه: ١/١٤٧ برقم (٥٢٤).

الإسلام والمحافظة على النبات وتنميته

١- وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»[١]. يَعْنِي: مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً فِي فَلاَةٍ يَسْتَظِلُّ بِهَا ابْنُ السَّبِيلِ وَالْبَهَائِمُ عَبَثًا وَظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ يَكُونُ لَهُ فِيهَا- صَوَّبَ اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ.

٢- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَرْزَؤُهُ[٢] أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»[٣].

٣- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَصَبَ شَجَرَةً فَصَبَرَ عَلَى حِفْظِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا حَتَّى تُثْمِرَ كَانَ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُصَابُ مِنْ ثَمَرَتِهَا

---

(١) أخرجه أبو داود: ٢/٧٨٢ برقم (٥٢٣٩).

(٢) (يَرْزَؤُهُ): أي يصيب منه خيرًا.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري: ٢/٧١٨ برقم (٢١٩٥)، ومسلم: ٣/١١٨٨ برقم (١٥٥٢) واللفظ له.

صَدَقَةٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

٤- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنْ قَامَتْ عَلَىٰ أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسْلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»[2].

وفي أَمْرِ النبي ﷺ حَضٌّ على مواصلة العمل بلا ضَجَرٍ أو إحباط.

(١) أخرجه أحمد: ١٢٩/٢٧ برقم (١٦٥٨٦)، والبيهقي في «الشُّعَب»: ٢٦٥/٣ برقم (٣٤٩٨).

(٢) أخرجه أحمد: ٢٥١/٢٠ برقم (١٢٩٠٢).

الإسلام والمحافظة على الحيوان والرفق به

١- قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ»[(١)].

٢- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا[(٢)] أَوْ حَائِشَ[(٣)] نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: «أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ

---

(١) أخرجه أبو داود: ٢/٣٢ برقم (٢٥٦٧).

(٢) (الهَدَف): ما ارتفع من الأرض.

(٣) (الحائش): النخل المُلْتَفُّ المُجتمِع.

إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[1]. وَذِفْرَاهُ: أَصْلُ أُذُنَيْهِ.

٣- وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ[2] عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَإِنَّ الأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نُسْنِي عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطِشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «قُومُوا». فَقَامُوا فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَةٍ، فَمَشَىٰ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ، فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ الْكَلِبِ وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ. فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ». فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ نَحْوَهُ حَتَّىٰ خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَاصِيَتِهِ أَذَلَّ مَا كَانَتْ قَطُّ حَتَّىٰ أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ[3].

٤- وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَقَّهَا، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْجَدْبِ فَأَسْرِعُوا السَّيْرَ، فَإِذَا أَرَدْتُمُ التَّعْرِيسَ

---

(١) أخرجه أبو داود: ٢/٢٧ برقم (٢٥٤٩)، والحاكم في «المستدرك»: ٢/١٠٩ برقم (٢٤٨٥) وصححه، وأخرجه مسلم مختصرًا: ١/٢٦٨ برقم (٣٤٢).

(٢) (يَسْنُون)، أي: يستقون.

(٣) أخرجه أحمد: ٢٠/٦٤ برقم (١٢٦١٤).

فَتَنَكَّبُوا عَنِ الطَّرِيقِ»[1].

٥- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ، سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ[2] الأَرْضِ»[3].

٦- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَىٰ مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَىٰ الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟!

فَقَالَ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود: ٢/٣٢ برقم (٢٥٦٩)، وابن حبان في «صحيحه»: ٦/٤٢٠ برقم (٢٧٠٣).

(٢) (خَشاش الأرض): هوامها وحشراتها، وقيل: صغار الطير.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري: ٣/١٢٨٤ برقم (٣٢٩٥)، ومسلم: ٤/١٧٦٠ برقم (٢٢٤٢).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري: ٢/٤٨٠ برقم (٢٣٣٤)، ومسلم: ٤/١٧٦١ برقم (٢٢٤٤).

٧- قَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عنها-: كَانَ لآلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحْشٌ، فَإِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَعِبَ وَاشْتَدَّ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا أَحَسَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ دَخَلَ، رَبَضَ[1] فَلَمْ يَتَرَمْرَمْ[2] مَا دَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْبَيْتِ كَرَاهِيَةَ أَنْ يُؤْذِيَهُ[3].

٨- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ التَّحْرِيشِ[4] بَيْنَ الْبَهَائِمِ[5].

٩- وَعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي قَدْ لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ[6] الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا». فَنَهَىٰ عَنْ ذَلِكَ[7].

١٠- وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ

---

(١) رَبَضَ في المكان يَرْبِض: إذا لصق به وأقام ملازمًا له.

(٢) (يترمرم)، أي: لم يتحرّك، ولم يبرح مكانه.

(٣) أخرجه أحمد: ٤١/٣٢٠ برقم (٢٤٨١٨).

(٤) (التحريش): الإغراء بينها وتهييج بعضها على بعض.

(٥) أخرجه أبو داود: ٢/٣١ برقم (٢٥٦٢)، والترمذي: ٤/٢١٠ برقم (١٧٠٨).

(٦) (الوسم): العلامة بنار أو غيرها في الوجه.

(٧) أخرجه أبو داود: ٢/٣١ برقم (٢٥٦٤).

شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا[1].

١١- وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»[2].

١٢- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ»[3].

١٣- وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[4].

(فَإِذَا قَتَلْتُمْ)، أي: قَوَدًا قِصَاصًا، (فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ)، أي: هيئة القتل، والإحسانُ فيها اختيارُ أسهل الطرق وأقلها إيلامًا (وَإِذَا ذَبَحْتُمْ)، أي: بَهِيمةً تَحِلُّ (فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ): الذبح بالرفق بها، فلا يصرعها بعنف، ولا يجرها للذبح بعنف، ولا يذبحها بحضرة أخرىٰ (وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ): وإراحتها تحصل بسقيها، وإمرار السكين عليها بقوة ليسرع موتها فتستريح من ألَمِه.

---

(١) أخرجه مسلم: ٣/١٥٥٠ برقم (١٩٥٩). و(قتل الدواب صبرًا)، أي: تُحبس للقتل عبثًا، لا للتزكية المباحة علىٰ وجهها المأمور به.

(٢) أخرجه مسلم ٣/١٥٤٩ برقم (١٩٥٧).

(٣) أخرجه مسلم ٣/١٦٠٩ برقم (٢٠٣٨).
و(إياك والحلوب)، أي: احذر ذبح شاة ذات لبن.

(٤) أخرجه مسلم: ٣/١٥٤٨ برقم (١٩٥٥).

قال الإمام النووي: وَهَذَا الْحَدِيث مِنَ الْأَحَادِيث الْجَامِعَة لِقَوَاعِد الْإِسْلَام. وَاللهُ أَعْلَم.

١٤- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَجُلاً أَضْجَعَ شَاةً يُرِيدُ أَنْ يَذْبَحَهَا وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ؟ هَلاَ حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا»[1].

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: ٤/٢٥٧ برقم (٧٥٦٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

الإسلام ورحمة الطَّيـر

١- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ[1] إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلاَنًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ»[2].

٢- وجاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَات يَوم وعَلَيْهِ كِسَاءٌ وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ قَدِ الْتَفَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَمَرَرْتُ بِغَيْضَةِ[3] شَجَرٍ، فَسَمِعْتُ فِيهَا أَصْوَاتَ فِرَاخِ طَائِرٍ، فَأَخَذْتُهُنَّ فَوَضَعْتُهُنَّ فِي كِسَائِي، فَجَاءَتْ أُمُّهُنَّ فَاسْتَدَارَتْ عَلَىٰ رَأْسِي فَكَشَفْتُ لَهَا عَنْهُنَّ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ مَعَهُنَّ، فَلَفَفْتُهُنَّ بِكِسَائِي فَهُنَّ أُولاَءِ مَعِي. قَالَ: «ضَعْهُنَّ عَنْكَ». فَوَضَعْتُهُنَّ وَأَبَتْ أُمُّهُنَّ إِلاَّ لُزُومَهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «أَتَعْجَبُونَ لِرُحْمِ أُمِّ الأَفْرَاخِ فِرَاخَهَا».

---

(١) (عجَّ): رفع صوته مُستغيثًا.

(٢) أخرجه النسائي: ٢٣٩/٧ برقم (٤٤٤٦)، وأحمد: ٢٢٠/٣٢ برقم (١٩٤٧٠) واللفظ له.

(٣) (غَيْضَة شَجَر): أي مجتمع الأشجار، أو الشجر المُلْتَفّ.

قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا، ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُنَّ وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ». فَرَجَعَ بِهِنَّ[1].

٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً[2] مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرُشُ[3]، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»[4].

(١) أخرجه أبو داود: ٢/١٩٩ برقم (٣٠٨٩).

(٢) (الحُمَّرَة): طائرٌ صَغيرٌ كالعُصفور.

(٣) (تفرش): تقرُب من الأرض وترفرف بجناحيها.

(٤) أخرجه أبو داود: ٢/٦١ برقم (٢٦٧٥).

الإسلام والتوازن البيئي

لقد نَبَّه الإسلام علىٰ أهمية الحفاظ علىٰ التوازن البيئي، وأمر بحفظ أنواع الكائنات الحَيَّة وسلالاتها من الانقراض من أجل استمرار هذا التوازن.

١- التوازن البيئي يقوم علىٰ حفظ المقادير الكَمِّيَّة والكيفية في الكون:

إن الله -تبارك وتعالىٰ- قد وضع لكل شيء في الكون مقدارًا محدَّدًا بدقة وحكمة، وجعل العلاقات القائمة بين أجزائه تقوم علىٰ ميزانٍ منضبطٍ لا ترىٰ فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، وإن أيَّ تَدَخُّلٍ من الإنسان يُخِلُّ بهذا التوازن الكَمِّيِّ في المِقدار أو الكيفي في العلاقات- يؤدي حتمًا إلىٰ فساد البيئة ويهدد الوجود.

(أ) قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [سورة الحجر، آية: ١٩].

والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد.

(ب) وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [سورة الحجر، آية: ٢١].

(ج) وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [سورة الرعد، آية: ٨].

(د) وقال تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [سورة الرعد، آية: ١٧].

والشاهد في الآية قوله: (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا) مما يشير إلىٰ انضباط مقدار الماء النازل من السماء مع انضباط مساحة الأودية التي جعلها الله في الأرض تتحمله وتسعه. ومن المفهوم ضِمنًا أنه عند حدوث أيّ خلل في هذا المقدار يحدث فسادُ الأرض وهلاك الإنسان؛ لأنه إن زاد الماء عما قُدِّرَ له من أماكن يسير فيها لأغرق وهَدَّمَ مظاهرَ الحياة التي ابْتَنَاهَا الإنسانُ، وكذلك إن ضاقت الأودية ولم تسع الماء المقدَّرَ.

وهناك شاهد آخر جاء في قوله تعالىٰ: (يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ) فالآية أشارت إلىٰ ضربها مثلًا للحق والباطل، تُمَثِّلُ الحَقَّ (وهو ما قام عليه الخلق، وهو ضد العبث والفساد والظلم) فيما ينفع الناس، وهو إصلاح الأرض وعمارتها، وتيسير الحياة علىٰ ساكنيها، وهذا هو الذي يمكث في الأرض، أي يبقىٰ نفعه ويستمر أثره. وتُمَثِّلُ الباطلَ (الفساد والعبث والظلم) فيما يذهب جُفاء، ولا يَحْصُلُ منه صاحبه علىٰ منفعة حقيقية، ولا يبقىٰ أثره في الأرض، بل هو إفساد وضياع يحدث في الأرض وفي حياة الناس.

(هـ) وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، آية: ٤٩].

(و) وقال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن، آية: ٥-٩].

والشاهد في الآيات: الحسبان، والميزان، والقسط. فالآيات تتحدث عن الخلق والأمر، والأمر قام علىٰ ما قام عليه الخلق من الحق والميزان، فطالبت الإنسان بضبط هذا الميزان وعدم الخسران

فيه، بتخسير المقدار (الكمي) أو العلاقات (الكيفي) التي تتحكم فيه.

٢- التوازن البيئي يقوم على حفظ سلالات الكائنات:

(أ) وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام، آية: ٣٨].

قال: (أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)، فهي أمثالنا في كونها مخلوقة لله، مشتركة معنا في الوجود على الأرض؛ ولذلك فاحترام وجودها وعدم الاعتداء عليها واجبٌ علينا، ورعاية حقها في الحياة هو جزءٌ من عمارة الأرض وصلاحِها؛ ولذلك أمر الله -سبحانه وتعالى- نوحًا أن يحمل في سفينته من كل أُمَّة زوجين كي يحفظها من الانقراض.

(ب) قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ ﴾ [سورة هود، آية: ٤٠].

فجعل سبحانه أمر المحافظة على وجود الحيوانات والطيور وغيرها من الأهمية، حيث بدأ أمره لنُوح عليه السلام بحملها في السفينة، ثم عطف على ذلك أهله، ثم عطف عليهم المؤمنين. فكانت السفينة شِرْكًا بينهم جميعًا في النجاة عليها كما كانت الأرض من قبل شركًا

في احترام الحياة عليها، وفي ذلك ما يعكسُ أهميةَ المحافظة علىٰ التوازن البيئي وبقاءِ الأمم التي خلقها الله علىٰ الأرض.

وفي سُنّة رسول الله ﷺ نرىٰ ما يدعو إلىٰ احترام الحشرات والحيوانات والطيور والحرص علىٰ بقاء سلالاتها؛ لأنها أمم خلقها الله في الأرض، والمحافظة عليها جزءٌ من المحافظة علىٰ التوازن البيئي الذي يُصْلِحُ حياةَ الإنسان.

(ج) قال رسول الله ﷺ: «**قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ**»[1].

(د) وقال ﷺ: «**لَوْلاَ أَنَّ الْكِلاَبَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا، فَاقْتُلُوا مِنْهَا الأَسْوَدَ الْبَهِيمَ**»[2].

فالله لم يخلق شيئًا عَبَثًا، وفي كل شيء له حكمة.

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٣/١٠٩٩ برقم (٢٨٥٦)، ومسلم: ٤/١٧٥٩ برقم (٢٢٤١).

(٢) أخرجه أبو داود: ٢/١٢٠ برقم (٢٨٤٥)، والترمذي: ٤/٨٠ برقم (١٤٨٩) وقال: حديث حسن.

قال النوويّ -رحمه الله-: وأما قوله: أَمَرَ رَسُول الله ﷺ بِقَتْلِ الْكِلَاب، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُهُمْ وَبَالُ الْكِلَابِ». ثُمَّ رَخَّصَ فِي كَلْبِ الصَّيْد وَكَلْب الْغَنَم.... فقال أصحابنا: إن كان الكلب عقورًا قُتِلَ، وإن لم يكن عقورًا لم يَجُزْ قتله، سواء كان فيه منفعة من المنافع المذكورة أو لم يكن. قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: والأمر بقتل الكلاب منسوخ، وقد صح أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب مرةً، ثم صح أنه نهىٰ عن قتلها، قال: واستقر الشرع عليه، علىٰ التفصيل الذي ذكرناه. قال: وأمر بقتل الأسود البهيم، وكان هذا في الابتداء -يبدو أنه كان نوعًا عقورًا منتشرًا في المدينة يغلب عليه إيذاء الإنسان- وهو الآن منسوخ. هذا كلام إمام الحرمين ولا مزيد علىٰ تحقيقه، والله أعلم[1].

ويظهر من أمره ﷺ بقتل الكلاب ثم تخصيصه بالأسود البهيم ثم نسخه- أن الأمر كان يتعلق بمراعاة التوازن البيئي، وأن العلة التي دار معها الأمر هي زيادة أعداد الكلاب في المدينة بالشكل الذي كان يهدد أمن الإنسان وحياةَ غيره من الحيوانات.

(١) النووي، «المِنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحَجّاج»: ١٨٦/٣، المطبعة المصرية، ط١- ١٩٣٠م.

فكان أمره ﷺ بقتل الكلاب ثم تخصيصُه ثم نسخه كلُّ ذلك رحمةً منه، ومحافظة علىٰ البيئة الكلية، والتوازن البيئي الذي يحفظ علىٰ الإنسان حياته وأمنه.

٣- التوازن البيئي يقوم علىٰ إقامة المَحميّات البيئية: قال ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا كله، لاَ يُخْتَلَىٰ[1] خَلَاهَا[2]، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمَنْ أَشَادَ بِهَا، وَلاَ تُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلاَّ أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ، وَلاَ يُحْمَلُ فِيهَا السِّلاَحُ لِقِتَالٍ»[3].

قال النبي ﷺ: «إِنِّي حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لاَبَتَي الْمَدِينَةِ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ». وَقَالَ راوي الحديث: ثُمَّ كَانَ أَبُو سَعِيدٍ يَأْخُذُ أَحَدَنَا فِي يَدِهِ الطَّيْرُ فَيَفُكُّهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ يُرْسِلُهُ[4].

وهذا أقرب شيء إلىٰ فكرة المَحمِيّات الطبيعية التي عرفها الإنسان حديثًا، ولكنها محميات إسلامية تحفظ النبات والحيوان

---

(١) (يُختلىٰ): يُؤخذ ويُقطع.

(٢) (الخَلا): هو الرطب من الكَلَأ والعُشب.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند»: ٢/٢٦٧ برقم (٩٥٩).

(٤) صحيح مسلم: ٢/١٠٠١ برقم (١٣٧٤).

والإنسان ليس من الفناء والموت فقط، ولكن من مجرد الشعور بالخوف. فالمحميات الإسلامية والتي تتمثل في فكرة الحَرَم فرضت على الإنسان الأمن لكل من يدخل في حدودها من الأحياء.

الإسلام والسلام البيئي

يبدأ السَّلام البيئي من احترام الإنسان والإحسان إليه باعتباره جُزءًا من البيئة، وحمايته وتنميته جزءٌ من مهام الخلافة التي كَلَّفنا الله بها، وإن أي اعتداء علىٰ الإنسان من ناحية هدم بنيانه أو الاعتداء علىٰ كرامته واحترامه وحريته لهوَ أكبر اعتداء وفساد في البيئة؛ لأنه يحرمها من اليد التي تقوم علىٰ حمايتها.

واحترام **الإنسان** للإنسان يبدأ من:

أولاً: التواضع.

وهو احترام إنسانية الإنسان، وعدم التعالي عليه لسببٍ أو لآخر، حتىٰ وإن ضل إنسان طريق ربه فجحده وكفر بنعمه، يجب علىٰ من أنعم الله عليهم بالهداية إلىٰ المنهج الحق وإلىٰ الإيمان المتفق مع العقل والفطرة- أن يحترموا كونه مخلوقًا لله، فيحترموا إنسانيَّتَهُ وحقه في المشاركة في التسخير والتعاون في المحافظة علىٰ الحياة والوجود المشترك.

قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّىٰ لاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ**

عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ»[1].

وليس التواضع أن يَحْقِر الإنسان نفسَهُ أو يبخسها حقَّها من الكرامة والعزة والحرية، ولكنه يعني الاحترام، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَرَىٰ أَمْرًا لِلهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لاَ يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ. فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَىٰ»[2].

ثانيًا: عدم الإيذاء.

ومثال ذلك: نَهْيُ النبيِّ ﷺ عن إيذاء الجار، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[3].

أي: أذاه.

وبمقتضىٰ هذا النص لابد أن يُجَنِّبَ المسلمُ جارَهُ أيَّ شرٍّ أو إيذاء، والجارُ يشمل المسلمَ والكافر والحُرَّ والعبد والغني والفقير والقريب والأجنبي والقاصي والداني والأفراد والجماعات. ويشمل جار السّكن،

(١) أخرجه مسلم: ٤/٢١٩٧ برقم (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه: ٢/١٣٢٨ برقم (٤٠٠٨).

(٣) متفق عليه، البخاري: ٥/٢٢٤٠ برقم (٥٦٧٠)، مسلم: ١/٦٨ برقم (٤٦).

وجار الصُّحبة، وجار الطريق، وجار العمل، وجار المسجد.

وعموم لفظة «**بوائقه**» يشمل كلَّ أذىً أو اعتداء يُحدث تلوثًا أو تشويهًا في البيئة الإنسانية، سواء كان بصريًّا أو ضوضائيًّا أو إشعاعيًّا أو هوائيًّا أو غير ذلك، وتشمل الأذىٰ المادي والمعنوي، وحماية البيئة تبدأ من حماية الجار.

ويلاحظ في الحديث أنه لم ينه عن إيذاء الجار فقط، ولكن أمر بتأمينه من الأذىٰ، أي جعله يشعر بالطمأنينة وسلامة الجانب في مجاورة المسلم؛ لأنه لا يتوقع منه شرًّا أبدًا، ولن يُوصِلَهُ المؤمنُ إلىٰ تلك الحالة إلا بِمُدَاومَتِهِ تَقْدِيمَ البِرِّ والسلام له.

ومن صور الإيذاء المنهي عنه والتي تُحدِثُ تَلَوُّثًا بَصَرِيًّا كتابة الشعارات، وتعليق الصور والإعلانات علىٰ جدران البيوت والمحلات دون إذن أصحابها، فذلك يُعَدُّ اعتداء علىٰ ملكية الغير، فخارج البيت كداخله وتابع له.

فما بالنا بالدول التي تُنتج الطاقةَ النووية، وتسعىٰ إلىٰ دفن النُّفايات الإشعاعية الناتجة عن عملية التصنيع في أرض جيرانها، دون إذن منهم، أو بإرغامهم علىٰ قبول ذلك بالقوة.

ولا أدل علىٰ احترام الجار مِن مَنْعِ النبي ﷺ مَن أَكَل ثومًا أو بصلًا أن يحضر الجماعة في المسجد فيؤذي جيرانه برائحته

الكريهة، وأَمْرِه أن يأخذ زينته عند كل مسجد.

ويصف المقدادُ بن الأسود لُطفَ رسول الله ﷺ ومحافظَتَه علىٰ أصحابه ومجاوريه من إزعاجهم بالصوت، فَقَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ، وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ، فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لاَ يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ[1].

وكان ﷺ إذا قام يتهجد بالليل -في المسجد أو في بيته- قرأ بصوت يُؤْنِسُ اليقظان ولا يوقظ الوَسْنان.

وكان صحابة رسول الله ﷺ يقرعون بابه بأظافرهم؛ أدبًا منهم مع رسول الله ﷺ[2].

ثالثًا: الحب.

قال ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[3].

إذن فالثقافة الإسلامية هي ثقافة بيئية؛ لأن فيها احترامًا لصِحَّةِ الإنسان وذوقِه ومشاعرِه، والثقافة البيئية جزءٌ رئيسٌ من ثقافتنا الدينية حتىٰ ولو لم تَرِدْ فيها نصوصٌ صريحة.

---

(١) أخرجه مسلم: ٣/١٦٢٥ برقم (٢٠٥٥).

(٢) أخرج البخاري في «الأدب المُفْرَد»: ١/٣٧١ برقم (١٠٨٠) عَنْ أَنَس بن مَالِك -رضي الله عنه- قال: «إِنَّ أَبْوَابَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ تُقْرَعُ بِالأَظَافِيرِ».

(٣) متفق عليه؛ البخاري: ١/١٤ برقم (١٣)، ومسلم: ٣/١٢١٩ برقم (١٥٩٩).

والخلاصة

١- أن الإسلام يمتلك رؤيةً متكاملةً تصلح للتعامل مع قضية البيئة، وتشتمل هذه الرؤيةُ على تصوراتٍ عقائديةٍ وأحكامٍ فقهيةٍ وآدابٍ أخلاقيةٍ تجعل الإنسان مطالَبًا وقادرًا ومدفوعًا إلى التعامل السليم مع البيئة بمفهومها الشامل، والمشاركة والتعاون بشأن عدم الإفساد فيها، بل والسعي لإصلاحها ما أمكن، والاستفادة منها على وجهٍ يتفق مع مُرادِ الله -سبحانه وتعالى- من خَلْقِه للخلق.

٢- المسلم يتصور أن الكون من حوله بجماده ونباتِه وحيوانِه وإنسانِه يُسبِّح، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [سورة الإسراء، آية: ٤٤]، وأن هذا الكون يسجد لله عبادةً، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [سورة الرحمن، آية: ٦]، وأن هذا الكون يتفاعل، قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [سورة فصلت، آية: ١١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [سورة الدخان، آية: ٢٩]؛ ولذلك فإن المسلم يتعامل مع البيئة لا باعتبارها وسط يعيش فيه فقط، بل باعتبارها كائن يسير معه في الطريق إلى الله.

٣- وأن هذا الكون قد سخَّره الله لنا، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية، آية: ١٣].

٤- وأن الإنسان مُكَرَّمٌ في هذا الكون وهو في أعلى مراتبه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء، آية: ٧٠].

٥- وشَرَعَ اللّٰه لنا الحلالَ والحرام، ابتداءً من الطَّهارة والنظافة بالوضوء والاغتسال والتَّطَهُّرِ من الأنجاس والأرجاس، وانتهاءً بترتيب العَلاقات الدولية والمُجتَمَعيَّةِ بين الناس، وكُلُّها في تفاصيلها أحكامٌ تسعى للصلاح وتنفي الفساد.

٦- وأمر الإسلام بمجموعة من القِيَم تتمثل في أسماء اللّٰه الحسنىٰ، وفي البَدء في كل سُوَرِ القرآن بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وفي الحديث: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[1]، وأمرنا بالتَّدبُّر والتَّفكُّر والتَّعَقُّل، وبعدم السَّرَف والاعتدال والاقتصاد في كلِّ شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان، آية: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٣١].

٧- فالإسلام في كلِّياته وجزئياته صالحٌ لأن يكون دستور البيئة في كلِّياتها وجزئياتها خاصَّةً وقد ارتقىٰ بالحقوق إلىٰ درجة الواجبات، ولم يقف عند حق الإنسان بل امتد إلىٰ حقوق الأكوان.

---

(١) سبق تخريجه، ص٤٦.

محتويات الكتاب

مقدمة الناشر ٧
مقدمة المؤلف.. ٩
أما أولاً: الخلافة والتَّسْخير. ١٢
وأما ثانيًا: الحق والواجب.. ١٣
وأما ثالثًا: المنهج والبناء. ١٦
وأما رابعًا: المحافظة والمحبة. ١٨
عَلاقة الكون بخالقه ٢١
عَلاقة الإنسان بالكون ٢٥
عَــلاقــةُ التَّسْــخِــيــر ٣٥
العَلاقة بين الإنسان والأرض ٤١
الأمر العام بالرحمة والرِّفق بجميع الخلق.. ٤٥
مفهوم الخلافة في المنظور الإسلامي ٤٩
دعوة الإسلام إلى النظر والتأمُّل في الكون ٥٧
دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض ٦٧
دعوة الإسلام إلى النهي عن الفساد والإفساد ٧٥
العَلاقة بين الحب والفساد: ٧٩
الإسلام والنهي عن الإسراف ٨١
الإسلام والأمر بالمشاركة في الانتفاع بما سَخَّرَه الله في الكون ٨٣

الإسلام والأمر بالنظافة على مستوى الإنسان والبيئة ٩١
(أ) مَنَعَ من تلويث البيئة..... ٩٢
(ب) أَمَرَ الناسَ بالتداوي والعلاج، وأوجب الاجتهاد في البحث عن الدواء النافع:..... ٩٢
(ج) أَمَرَ بمكافحة الأمراض ومَنْعِ انتشارها بين الناس:..... ٩٣
(د) أَمَرَ بنظافة المكان:..... ٩٣
(هـ) وأَمَرَ بنظافة اليد:..... ٩٤
(و) وأَمَرَ بنظافة الفم:..... ٩٥
(ز) وأمر بنظافة الشَّعر:..... ٩٦
(ح) وأَمَرَ بنظافة الثوب:..... ٩٧
الإسلام والمحافظة على الماء..... ٩٩
الإسلام والمحافظة على النبات وتنميته ١٠٣
الإسلام والمحافظة على الحيوان والرفق به ١٠٥
الإسلام ورحمة الطَّيْر ١١١
الإسلام والتوازن البيئي..... ١١٣
الإسلام والسلام البيئي..... ١٢١
أولاً: التواضع. ١٢١
ثانيًا: عدم الإيذاء..... ١٢٢
ثالثًا: الحب. ١٢٤
والخلاصة ١٢٥
محتويات الكتاب ١٢٧

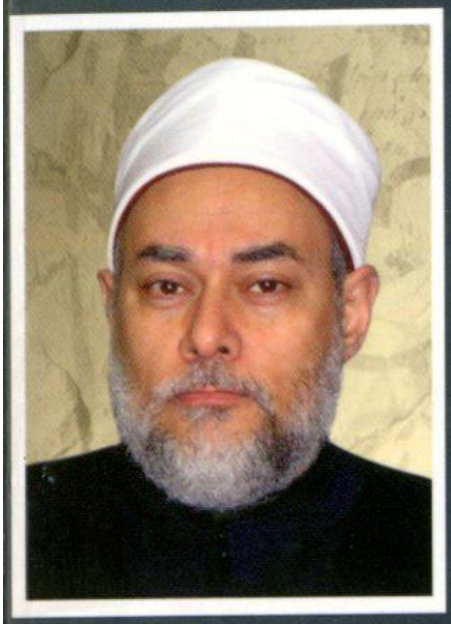

فضيلة الإمام العلامة نور الدين

علي جمعة

مفتي الديار المصرية

هذا الكتاب

يرصد قضية من أهم القضايا التي تهم العالم بأسره؛ فهو يقدم إلينا رؤية دينية متكاملة، متبصرة معاصرة لـ«قضية البيئة». تلك القضية التي تتناول واقعنا البيئي في كُرَتِنَا الأرضية، والذي يتعرض لخطر شديد جرَّاء سلوك الإنسان الجائر تجاه هذه الأرض والتي سخرها الله له واستخلفه فيها.

فيقدم لنا فضيلة الإمام العلامة نور الدين «علي جمعة» في هذا الكتاب العامر بالثراء الفكري والديني والعلمي هذه القضية بمفهومها العقدي، وأحكامها الفقهية، وآدابها الأخلاقية؛ حتى نكون قادرين على التعامل السليم مع البيئة بمفهومها الشامل، والمشاركة والتعاون بشأن عدم الإفساد فيها؛ بل والسعي لإصلاحها ما أمكن، والاستفادة منها على وجه يتفق مع مراد الله سبحانه في كونه، ومن خَلْقِه للخَلْق.

الناشر

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

تراثنا ... أمانة في أعناقنا

تليفون : +٢٠٢-٢٩٨٥٠٨٩١ / +٢٠٢-٢٩٨٥٠٨٢٤

+٢٠٢-٢٦٦٧٣٣٩٣ / +٢٠٢-٢٥٠٥٧٨٣٠

+٢٠٢-٠١٨١٧٥٥٥٦٦

E-mail : info@alwabell.com

www.alwabell.com

www.alimamalallama.com